الجمهورية العراقية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

محاضرات في التاريخ العربي

تأليف
الدكتور نزار عبد اللطيف الحديثي

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة بغداد

محاضرات في التاريخ العربي

تأليف

الدكتور

نزار عبداللطيف الحديثي

طبع على نفقة جامعة بغداد

مطبعة جامعة بغداد

١٩٧٩


كتب تاريخ وعلوم أخرى
facebook.com/hisy.books

مقـــــدمة

هذا الكتاب ليس كتابا كاملا في التاريخ العربي انما هو محاولة لدراسة واحدة من تجارب الامة العربية في تاريخها الطويل والمشرق والتي هي تجربة الثورة العربية بقيادة الرسول القائد محمد بن عبدالله (ص) كمـــا انجزها في القرن الاول الهجري فهو اصلا دراسة للكيفية التي تجددت بها الامة العربية ونظريتها في التجدد وكيفية انجاز المؤمنين الاول من صحابة الرســـول (ص) لعملية بناء الدولة وتطور هذه العملية ونتائجه ثم لعلاقة العرب بالعالم .

كتب هذا الكتاب من وجهة نظر قومية تعيش في القرن العشرين وترى في التاريخ حركة الامة وجماهيرها حركة ، اجتماعية لهـا عواملها واتجاهاتهـــا ولها تناقضاتها الخرجية والداخلية معا ، وهذه النظرة تؤمن بالامة وبانهـــا قادرة على صنع مستقبلها كقدرتها في صنع ما ضيها العظيم وبانها وهـــي تنهض لتجديد بناءها القومي تحتاج الى استلهام صيغ تحققها التي عاشـــتها لتؤصل قيمها وشخصيتها وتحدد نهجها فهي في نظرتها لتاريخها الذي مضى تتعامل تعامل الثائر المتحفز الى امام ودراستها لتاريخها لن تشدها الى الوراء مستلقية تسترجع عظمة الماضي انما امة دائمة الحفز مستمرة الروح متصلة القدرة على خلق العقائد وابتكار الحضارة . هكذا كانت في التاريخ . والله الموفق .

بغداد / تموز/١٩٧٩ — الدكتور نزار عبداللطيف


كتب تاريخ وعلوم أخرى
facebook.com/hisy.books

مدخــــل

يعتبر الوطن العربي واحدا من اقدم مواطن الانسان الاول ، اذ توفرت له مزايا متعددة ، فأرضه واسعة تتوسط ثلاث قارات ، وتشكل الجسـر البري الموصل بينهما ، وتسيطر على المساحات المائية الموصلة بينها ، وتتمتع بطول ساعات الصحو .

لقد أثرت هذه المزايا في حياة سكانه القدماء ، فهم بفضل طول ساعات الصحو كانوا على اتصال دائم بحركة الكون وتحسس لمظاهرها ، وبالتالي التأثر بنتائجها سلبا أو ايجـابا ، فنشأت من جراء ذلك علاقة تأمل بـين الانسان وبين الحركة الكونية ، فسمت المعتقدات الروحيـة ، وشغلت حيزا كبيرا من تفكير المجتمع ، واثرت في حياة الناس وفي نتاجهم الفني ، فكانـوا يؤطرون بها عملهم اليومي وسعيهم في استخلاص مقومات عيشهم من الطبيعة، دون أن ينسيهم ذلك قيمة سعيهم المستمر في الطبيعة مما زاد من تراكـم خبرتهم ، وانضج معتقداتهم الدينية ثم ارتفع بها من بدائيتها الى درجة اعلى من النضج الفكري بحيث أصبحت بحد ذاتها نشـاطا حضـاريا متكاملا . وهم بسبب موقعهم الجغرافي المتوسط والمساحات المائية الواسعة التي تحيط به ، كانوا من انشط الاقوام انتقالا في وطنهم واحتكاكا بالاقوام المجاورة ، وهي فرصة جعلتهم يدركون ان هذا الكون لم يخلق لهم وحدهم وبالتالي فان قدرتهم في اكتشافه لا تبرر لهم استخدام نتائجه بمعزل عن الاخرين فكان لهـذه الحقيقة اثرها في تعلمهم الاتصال بالشعوب المجاورة والتفاعل معها والتأثير والتأثر الحضاري المتبادل ، وقد تولد عن هذا الوضع ذلك الاستعداد الدائم للابداع الحضاري ، خدمة البشرية ، فكانوا باستمرار يلعبـون دور المروج والناقل للانتاج الحضاري للعصر ، وليس غريبا ان نجدهم وسطاء في نقـل العطور والتوابل ، وليس غريبا ان نراهم من انشط الاقوام التجارية . ومع تواصل النشاط الحضاري على ضفاف الانهار ومصادر المياه الاخرى ، ظهرت

مشاريع الري الصناعي وشقت الجداول وبنيت السدود للسيطرة على المياه ، واتسع النشاط الزراعي وتعددت الحيوانات المدجنة والحيوانات المستأنسة ، وتطورت الوسائل المصنعة .

وهكذا تنوع وتوسع النشاط الاقتصادي وتعددت صوره ، وبدات وسائل الحياة تتطور ، وتحولت القرى الى مدن عامرة .

وفي حدود سنة (٣٥٠٠ ق.م) بدات الحضارة تتكامل وتنتشر في ارجاء وطننا العربي عندما اهتدى السومريون الى اختراع الكتابة ، ونجحوا في تكوين نظام روحي متماسك يتسم بالوحدة التامة وبدات الوقت يحوى تنوعا داخليا ، وقد تم التوصل الى اقامة سلطة سياسية ذات تخصصات متعددة في حدود دولة المدينة .

لم تكن المتطلبات الاقليمية البحتة السياسية او الجغرافية هي الاساس الذي قامت عليه الحضارات القديمة في الوطن العربي ، انما على الاكثر استندت هذه الحضارات الى نظرة فكرية شاملة للكون ذات منحى روحي . اذ لم يكن ممكنا بقاء الانسان بعيدا عن التأثير بميزة الوطن العربي الفريدة من نوعها (طول ساعات الصحو) .

ولقد تسبب جهل الانسان للكثير من اسرار الطبيعة في أن تصبح مظاهرها المتعددة آلهة ، وهكذا امتلكت الطبيعة مراكز قوى متعددة تفرض سيطرتها على الانسان وتعزز في ذهنه فكرة الاستسلام للقوة المطلقة ، غير أن تعامل الانسان مع الطبيعة وتوصله الى معرفة الكثير من حقائقها حجم قوة الطبيعة وقلص نفوذها وافقدها الكثير من مراكز قوتها ، وادى تعامل الانسان بتلك « التجريبية الموضوعية » كما تعبر عنها « ملحمة كلكامش » وحوار « ابراهيم الخليل » الى تحقيق قفزة نوعية في تطور المعتقدات الدينية وظهور تيار يدعو الى الارتقاء بالمعتقدات الدينية الى نوع من « الوحدة » وكان لهذا التيار في المعتقدات الدينية صداه في تطور السلطة السياسية عندما اتجه بعض الملوك الى توحيد دويلات المدن ومن ثم توحيد الاقاليم المتجاورة والوصول الى بناء دولة كبيرة ادت الى شيوع عبادة اله واحد .

واذا كانت مسيرة التجريبيه الموضوعيه في « ملحمه كلكامش » قادت الى ادراك حقيقة وجود قوة ازلية ، هي قوة الخالق التي لهـا اسرارها التي لا تدرك ، ولا يحق للانسان بلوغها ، فانها قادت ايضا الى حقيقة اخرى هي ان العقل الانساني غير معروف مداه ، فاستقرت المعرفة البشرية في حدود هذا الادراك ، فهي من حيث تعاملها مع الكون تدرك وجود تلك القوة المطلقة وتنظر لها نظرة تقدير واحترام وهي في تعاملها مع الطبيعة لم تتوقف عند حد معين من السيطرة عليها وهنا اكتسبت مزية اخرى اذ اضحت حركة تجدد دائم ابرز ما فيها انها مهما بلغت في تجددها من مدى فانها تبقى اقل من الطموح فلا تتحول الى عملية اسر للانسان في حدود المتحقق انما تؤشر الطريق لمرحلة تحقق اعلى ، وقد عبرت عن هذه الميزة في كلا مظهري النشاط الحضاري المادي والروحي ، فعلى مستوى المعتقدات الدينية استمرت حلقات السلسلة وكان تاريخ سكان الوطن العربي عبارة عن محاولات متصلة لانضاج المعتقدات الدينية عرفت بحركة « التوحيد » ومع اننا لا نعرف الزمن الذي بدات فيه حركة التوحيد ولا متى ظهر الموحدون الاول وزمن تعاقبهم ولا الكثير من جوهر محاولاتهم ، الا اننا نعرف اسماء العديد منهم ونعرف بعض مبادئهم ، فنوح وهود وصالح وابراهيم ويوسف (عليهم السلام) كلهم مصلح يدعو الى تقدير الاله واحترامه ، غير ان ابراهيم الخليل انجحهم في انضاج حركة الاصلاح وبلورة جوهرها « التوحيد » . وجوهر التوحيد عنده : يقضي بان هناك الها واحدا للكون هو الجدير بالعبادة ، وان توجيه العقلية البشرية بهـذا الاتجاه يمنحها قدرة اكبر على تحقيق تقدم حضاري جديد .

ادت عملية النضج في المعتقدات الدينية على هذه الصورة الى «تحجيم» الطبيعة الى حد كبير ، غير انها بالمقابل عززت فكرة تاثير السماء في حياة البشر ، وقد برز هذا التاثير في ان اصبح معظم آلهة العرب آلهة سماوية او من مشتقاتها وهي ، حالة تعبر عن سمو المعتقدات الدينية ، وعن طموح بشري الى الارتقاء والتسامي الفكري والروحي والانشغال بالامور الكبيرة وتجاوز تفاصيل الحياة اليومية واعتبارها مجرد نتاج طبيعي للتوجه الفكري نحـو التوحيد ، بل حتى التوحيد السياسي كرس لسيادة اله معين ، وكان ايذانا

بالانتقال الى مرحلة جديدة من المعتقدات الدينية والتي عرفت بمرحلة « الاديان العليا » أو الاديان السماوية ، والتي لم تكن ممكنة بعد تجربة « ابراهيم الخليل » الا ان ترتبط باله واحد ، فكانت : اليهودية والمسيحية والاسلام أخيرا تعبيرا عن هذا التوجه .

تحددت حاجات الانسان في الوطن العربي كما تكشف عنها مسيرته التاريخية في اكتشاف سر الكون « الادراك » ومواصلة النشاط الحضاري من خلال « السيطرة » على الظروف الزمانية والمكانية حضاريا « وضع » التقدم .

تم هذا التوجه ضمن نظرة شاملة للحياة فكانت نتائجه تأخذ طريقها في التأثير الى مختلف مجالات الحياة ويتم ضمن الدور العالمي لسكان الوطن العربي فهو لم يكن مسألة دين ولا قضية عبادة مجردة لذاتها ، لقد كان عملية ارتقاء حضاري كل حلقة فيه تمثل اضافة حضارية تقوم على تفهم المستوى الحضاري الذي سبقها واستيعاب لحجم الاضافة المطلوبة وفقا لاحتياجات العصر . ان هذه الثنائية واضحة بدليل ان ايا من اجيال الوطن العربي لم يجد صعوبة في التفاهم مع نتاج من سبقه ، وتمثله وهضمه والارتقاء به ، حيث لم ينبئنا التأريخ أن جيلا استبدل ما قبله من معتقدات كليا أو الغاه واسس بناء جديدا . عبر هذا التطور استقرت « حركة التوحيد » في الوطن العربي باعتبارها سمة اساسية للحركة التأريخية للعرب ومظهر من مظاهر خصوصيتهم القومية باعتبارها عملية ابداع حضاري يتحد فيها « القومي » « بالانساني » . تبدأ الحركة قومية هدفها تكون قومي وتأخذ مداها « الانساني » في احداث التغيير في العلاقات الانسانية واعادة ترتيب حياة البشر وعلاقاتهم وفقا لقيم العصر وضروراته . وهكذا أيضا اصبحت الامة العربية تتسم بسمة « خلق العقائد » أي اصبحت تمارس الفعل الحضاري ، واصبح الوطن العربي موطن تحرك تأريخي متصل ونشاط حضاري متجدد له طابعه الخاص والمتميز ، ولعل ابرز ما تتسم به حركة التجدد انها تزواج بين القيم الروحية والمادية وتتناقض مع الانماط الحضارية ذات البعد المطلق «روحي أو مادي » .

البـــاب الاول

حركة التغيير العربي في القرن الاول الهجـــرى


كتب تاريخ وعلوم أخرى
facebook.com/hisy.books

الفصـــل الاول

- الوطن العربي والوضع الدولي قبل الاسلام .
- الاوضاع في جزيرة العرب قبل القرن السادس الميلادي .
- تطـــور مكـــــة .
- العرب والتحديات العالمية في القرن السابع الميلادي .



كتب تاريخ وعلوم أخرى
facebook.com/hisy.books

الوطن العربي والوضع الدولي قبل الاسلام

أدت عوامل التطور الحضاري النشيط ، والموقع الجغرافي الوسط ، وقدرة الامة على الخلق والابداع ، الى جعل الوطن العربي موقع حركة تاريخية متصلة دائمة التجدد ترتكز الى تراث حضاري عريق من القيم الاجتماعية والمزايا الانسانية فاصبح لهذا محط انظار البشرية وشكل بقيمه وعقائده ومبادئه عملية تحد دائم لما يتناقض مع تلك القيم والعقائد والمبادىء ، فتعرض لهذا السبب الى سلسلة متصلة من الهجمات مارستها اقوام متعددة استطاع بعضها اصابة البناء الاجتماعي والتسلل الى داخله .

ففي منتصف الالف الثاني قبل الميلاد تقدم الكاشيون من الجبال الشرقية واحتلوا بابل ، ومع أن الحكومات الوطنية نجحت في طردهم فيما بعد ، الا ان خطرا شرقيا اخر استطاع التسلل اليه عبر العراق ، وهذا الخطر هو هجمة الاخمينيين الذين استولوا على بابل في «٥٣٩ ق.م » . ثم تقدموا نحو الشام ومصر . وجابه الوطن العربي بعد ذلك الغزو اليوناني ، بقيادة الاسكندر الذي احتل الشام ومصر والعراق ، واستطاع في « ٣٣١ ق.م » أن يلحق الهزيمة بالاخمينين والتقدم في اسيا .وأعقبه غزو الرومان في «١٤٦ق.م» لبلاد المغرب واحتلال قرطاجة ، وفي سنة « ٦٤ ق.م » احتل الرومان الشام ثم مصر . اما العراق ، فقد احتله الفرس الساسانيون ، وهكذا شهد الوطن العربي مرحلة سيطرة اجنبية طويلة وعميقة ، لم تقتصر نتائجها على احتلال اطرافه الشمالية وبعض المناطق الاخرى ، حسب انما امتدت الى جزيرة العرب نفسها ، واستمر الصراع بين هذه الاقوام الغازية ، فكان كل منها يمارس دوره في النهب الحضاري والاقتصادي ، ويعمل على طمس مقومات الشخصية العربية وتخريب الثقافة القومية ، وحرف التطور التاريخي في الوطن العربي عن مجراه الخاص بالشكل الذي يلائم سيطرته .

الاوضاع في جزيرة العرب :

نتج عن احتلال الساسانيين والرومان للاطراف الشمالية من الوطن العربي ، ان اقتصرت سيادة العرب على الجزيرة ، والراجح ان الدولة الحميرية « ١١٠ ق.م-٥٢٥م » نجحت في ابقاء مظاهر الوحدة السياسية تغطي مساحة واسعة من الجزيرة العربية . فالحميريون كبقية القوى الاجتماعية في اليمن افادوا من ازدهار النشاط الاقتصادي المعتمد على نظام الري كوسيلة للسيطرة على المياه مما اتاح امكانية اوسع لزراعة الارض وتعدد فرص استخدام الماء ، ومن ثم ايجاد اكثر من فرصة لاستقرار الانسان ، وساعد في اتساع نطاق الاراضي الزراعية وتقدم الصناعة واستخراج المعادن ، وهم مثل غيرهم من سكان اليمن ، اشتغلوا بالتجارة ونشطوا في ذلك عربيا ودوليا ، مستفيدين من موقع اليمن على طرق التجارة ، ومعرفتهم بسر الرياح الموسمية ، وانشغال القوى الدولية الاخرى « الرومان والساسانيون » بالصراع ، مما جعلهم ينفردون بهذا الدور ، واتاح المجال للازدهار الحضاري ، الذي عبر عن نفسه في مظاهر متعددة لعل ابرزها التجارة التي اصبحت في ذهن البعض المحور الاساسي لحضارة اليمن ، غير ان كون التجارة عملية ليست عادية ولا يمكن ادراكها واتقانها بسهولة وتحتاج الى تطور مسبق يجعلها عملية ناجحة ينفي كونها اساس النشاط الحضاري ، انما يحدد موقها كمظهر من مظاهره الناجحة ، ويبقى نظام الري هو الاساس في التقدم الحضاري في اليمن واتساع نفوذها السياسي وتحولها الى قوة مناقضة لقوى الاحتلال التقليدية التي رات في السيطرة على اليمن امتيازات اقتصادية وسياسية وعسكرية يمكن توظيفها لصالحها في الصراع القائم بينها ، (١) اضافة الى تشجيعها قيام امارات عربية في الشمال تعزيزا للتجزئة والانقسام . فظهرت دولة الانباط ودول اخرى مثل : تدمر والحضر وامارتي الغساسنة والمناذرة

---

(١) كان الرومان أول من حاول احتلال اليمن عندما قاد اليوس جالوس حملته الفاشلة على اليمن سنة ٢٤ ق.م .

فيما بعد . جاء رد الدولة الحميرية للتحدي الاجنبي في عهد ملكها « ابو كرب اسعد » ، « ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت والاعراب في الطود وتهامة » الذي حكم حوالي سنة ٤٠٠م ، عندما قام في حوالي نهاية الربع الاول من القرن الخامس الميلادي بحملة على الاطراف الشمالية من الجزيرة (١) ومن هذه الحملة بدأ تاريخ امارة كندة حيث شهدت المنطقة حلفا قبليا واسعا برئاسة ملوك من آل كندة ، فظهرت على مسرح الاحداث هذه الدولة الفتية لتمارس دور الرد على التحدى القائم في الشمال والذي يهدف الى السيطرة على الجزيرة العربية .

بدأ النجاح الروماني في السيطرة على اليمن عندما تنصر الاحباش ووجدت الديانة المسيحية لها انصارا في اليمن ، كما ان اكتشاف هيبارخوس لسر الرياح الموسمية ودورها في تسيير السفن ادخل المنافسين الى ميدان التجارة واضعف نشاط اليمن التجاري وبالتالي اثر في قدرات الدولة الداخلية. ولما شعر ملوك اليمن بخطورة تهدد الاديان والثقافات حاولوا ان يعززوا الموقف السياسي بتحقيق الوحدة بنية ، كاجراء دفاعي ضد الغزو الاجنبي ، غير ان هذا العلاج المتاخر ، وفي ظروف ضعف الدولة وانقسامها ، اعطى للاحباش فرصة ذهبية للتدخل ، واستطاعوا اسقاط الدولة الحميرية واحتلال اليمن بحملة بحرية في عهد الملك الحبشي « آل صبيحة » مستخدمين الاسطول البيزنطي .

تبع سقوط الدولة الحميرية في اليمن سنة ٥٢٥م سقوط دولة كندة ايضا في زمن قصير لاحق ، وبتشجيع القوى الكبرى لعوامل التجزئة واستعداء القبائل على السلطة المركزية (٢) .

---

(١) تاريخ الطبرى ــ ٨٩٠/١ ، ٦٨٤ واخبار عبيد بن شريه الجرهمي ؛ حيدر اباد سنة ١٩٢٧ ص ٤٤٢ ــ ٤٤٣ .

(٢) ترتبط رواية دخول الاوثان الى الجزيرة العربية بعمر بن لحي ، ويقال انه جاء بها من الشام وقيل من العراق وكلاهما ارض محتلة والرواية توحي بتأثير ثقافات الدول الكبرى في العرب وتشجيعها للظواهر المخلة بجوهر التكون الحضاري لهم .

واعقب ذلك تطور لاحق عندما استطاع البطل القومي «سيف بن ذي يزن» طرد الاحباش ، الا ان اليمن التي تخلصت من الاحتلال الحبشي ، وجـــدت نفسها امام الاحتلال الساساني الذي بدأ يضغط من الشرق ليستولي عـــلى اليمن وبتشجيع اليهود الذين كانوا في هذا الوقت يعادون البيزنطيين ، فأصبح المجال متاحا لظهور مرحلة جديدة من التفتت الاجتماعي والسياسي والثقافي على اساس قبلي ، فســـادت الجزيرة مرحلة مـــن الحروب الداخلية وحلت العصبية القبلية محل الولاء للامة وامتدت الى المناطق الحضرية ، وتعرضت الثقافة العربية الى ضغوط بيزنطية ـ ساسانية تركزت على تشويه الثقافـــة العربية وطمس جوهرها « التوحيد الديني » الذي يمثل خـــط التطـــور التاريخي للفكر العربي وذلك بادخال تعديلات على مبدأ التوحيـــد في الاديان السماوية التي نزلت في الوطن العربي ومحاولة فرضها على العرب .

تطـور مكـــــة :

ادى سقوط اليمن الى حدوث فراغ في النشـــــاط التجاري الداخلي في الجزيرة العربية وساعد الصراع البيزنطي ـ الساساني على أن يمتد هـــذا الفراغ الى النشاط التجاري الخارجي ، وقد نجح اهل مكة بحكم علاقتهـــم التجارية القديمة مع اهل اليمن في ان يملأوا هذا الفراغ ولو داخليا على الاقل ويصبحوا ، وسطاء بين اليمن واطراف الوطن العربي الشمالية والغربيـــة « العراق والشام ومصر » . وظهرت نتائج دورهم بقيام سوق عكاظ اكبـــر مركز للتبادل التجاري في الجزيرة العربية ، بعد ١٥ عاما من سقوط اليمن(١) واتخاذه مقرا للتجارة والخطابة والشعر .

ادى كل من الحج والتجارة في الاسواق الى تنشيط الحركة الاجتماعية وزيادة اختلاط العرب ببعضهم وامتزاج ثقافاتهم واتفاقهم عـــلى استخدام الخط الشمالي في الكتابة العربية في الشعر والخطابة اداة للثقافة الواحدة ،

(١) البكري : معجم ما استعجم : ص ٩٥٩

تنظم معارفهم وخبراتهم المتكونة من التجارة خاصة ما يتعلق بالفلك والنباتات مضافا لها خبراتهم الخاصة بانساب القبائل ، وتبلور شعور عام بالتقاء هذه القبائل في نسب عام واهتمامهم بحفظ اخبارهم وذكريات حياتهم ، وقد ساعد هذا التكون الثقافي على نضج مشاعر مشتركة ومقاييس وقيم اخلاقية مشتركة وبالتالي نضج الشعور بالانتماء القومي الذي بدأ يظهر في الشعر العربي قبيل الاسلام عندما اصبحت القصيدة تعبر عن حالة القلق الاجتماعي مصحوبة بالرغبة في التغيير حتى ان الشعر لكثرة ما كان معبرا عن الحياة العربية بدأ لطبيعته هذه يعرف « بديوان العرب »⁽¹⁾، غير ان هذا النضج كان يصطدم بنتائج مرحلة التخلف والتجزئة وما افرزته من وعي محدود ومتخلف تلازم مع شعور بالعصبية القبلية وانشداد الى مصالح ورغبات ذاتية وفقدان الاسس الجوهرية لتكون الفرد العربي « النشاط الحضاري مقرونا بولاء قومي عام وانساني أشمل » .

احتلت مكة دورا بارزا في التطور الحاصل في الحياة العربية بسبب دورها في التجارة وما ترتب عليه من امكانيات اقتصادية ومكانة سياسية بين القبائل التي تمر بها طرق التجارة ، ومع أن هذا الدور كان مؤشرا لتبلور سياسي عربي واسع ، غير انه لم يتطور ايجابيا وبشكل سريع ، بحيث يجعل منها مركز استقطاب عربي بسبب ما اظهرته قريش من حرص على التوفيق بين مصالح القوى الكبرى المحتلة ومصالحها لتأمين تجارتها مع القوتين دون ان تثير غضب أي منهما .

التقى التطور في أوضاع الجزيرة العربية ايجابيا مع أوضاع العرب في الاراضي المحتلة حيث ازداد التناقض بين العرب والمحتلين البيزنطيين والساسانيين ، وكان محور هذا الالتقاء رغم عدم وضوحه التمسك بجوهر التكوين الحضاري للانسان العربي « التوحيد » ، عندما رفض العرب عموما المجوسية وعندما اخذوا المسيحية من مصادرها الاولى ، كما جاء بها عيسى، ورفضهم محاولات البيزنطيين لغرض مذهب « بولس ـ بطرس » او كما

عرفوه بالمذهب الملكاني لاقترابه من الشرك . وقد حاولت كلا الامارتين العربيتين في الشمال ، الغساسنة في الشام والمناذرة في العراق الافادة من الصراع البيزنطي ـ الساساني وما ترتب عليه من انهاك للقوتين والسعي بين القبائل العربية لتوحيدها واغتنام الفرصة وانتزاع الاراضي العربية من ايدي المحتلين ، وتعبر رسالة النعمان بن المنذر ملك الحيرة الى القبائل العربية عن هذا التوجه بشكل واضح(١) .

نجح البيزنطيون في القضاء على سلطة الغساسنة ايضا ، ونجح الفرس الساسانيون في احتلال اليمن وانهاء فترة الاستقلال التي حققها سيف بن ذي يزن ، ونجحوا في اسر النعمان بن المنذر أمير الحيرة واغتياله ، غير ان دعوة النعمان كانت قد نضجت والتقت بعض هذه القبائل بقيادة بني شيبان يقودهم هاني بن مسعود الشيباني مع الفرس في معركة ذي قار التي انتصر فيها العرب انتصارا خالدا قال عنه الرسول الكريم (ص) « هذا أول يوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا » (٢) ، فكان هذا اليوم بداية كفاح بطولي شهده العراق بقيادة قطبة بن قتادة السدوسي في منطقة الابلة « البصرة » والمثنى بن

---

(١) كتب النعمان الى قبائل العرب « انما انا رجل منكم وانما ملكت وعززت بمكانكم وما يخوف من ناحيتكم ، وليس شيء أحب الي مما سدد الله أمركم ، وأصلح به شانكم ، وأدام به عزكم ، والراي ان تسيروا ايها الرهط .. وليعلم كسرى أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه : ابن عبد ربه ـ العقد الفريد ـ القاهرة ١٩٦٦ ، ٢/١٠ . وقد قام كسر بقتل النعمان عندما وقعت بيده بعض هذه الكتب وورد ذلك في قوله : واما ما زعمت من قتلي النعمان بن المنذر ، وازالتي الملك عن ال عمرو بن عدى الى اياس بن قبيصة ، فان النعمان واهل بيته واطئوا العرب ، واعلموهم توكفهم خروج الملك عنا اليهم ، وقد كانت وقعت اليهم في ذلك كتب ، فقتله ، ووليت الامر اعرابيا لا يعقل من ذلك شيئا الدينوري : الاخبار الطول ـ القاهرة ٩٦٠ ص ١٠٩ـ١١٠ .

(٢) تاريخ الطبري : ٢/١٩٣ .

حارثة الشيباني في وسط العراق ، ان نفس اليقظة والكفاح جابـه الاحتلال الساساني في اليمن(١) . وجابه السيطرة البيزنطية في الشام ومصر .

وما أن حل القرن السابع الميلادي حتى كان واضحا ان العرب قد نمت بينهم عوامل النضج والتهيوء قوامها اللغة العربية والاهتمام بالفنون والخبرة الواقعية التي كونتها التجارة الدولية والداخلية وما اتاحته من اطـلاع على الثقافات الاجنبية المجاورة ، اضافة الى دورها ودور العمليات المشتقة منها ، كالتبادل والصيرفة والمعلومات عن الطرق في تنشيط الذهنية العربية ، وزيادة خبرات العقل العربي وخاصـة فيما يتعلـق بالشعوب وطبائعها والبلدان ومنتجاتها ، وخصائص تلك المنتجات وطرق التجارة وظروف البيئة وتأثيرها في النشاط التجاري ، والتعامل وأداة التعامل والعلاقات الدوليـة واحكام وقوانين تلك العلاقات ، كل هذه الخبرة والمعارف شكلت مادة نسيجية لمرحلة المخاض التي بدات قوامها الشعور المشترك والاحساس بالذات والتحفز(٢) .

وظهرت الدعوة الى التوحيد مجددا في القرن السابع الميلادي وكانت ابرز مظاهرها هي التالية :

١ ـ السامرية وهم جماعة من اليهود لم تؤمن الا بالاجزاء الخمسة الاولى من التوراة واعتبرت المتبقي من التلمود وهو ما اضيف الى التوراة من قبل أحبار اليهود في بابل تحريفا مضافا(٣) .

٢ ـ الفرق المسيحية التي رفضت القول بان المسيح اله واصرت على اعتباره بشرا مخلوقا وهي أصلا منطلقة من النسطورية ، وابرز المعبرين عنهـا « اريوس » (٤) .

٣ ـ الاحناف وهم الذين التزموا التوحيد كما انضجه ابراهيم الخليل وكانوا موجودين في مكة والمدينة وجنوب الجزيرة العربية(٥) .

---

(١) نزار الحديثي : أهل اليمن في صدر الاسلام . ص ٨٩ و٩٠

(٢) القائد المؤسس : في سبيل البعث ص ١٢٧ .

(٣) الدكتور حسن ظاظا : الفكر الديني الاسرائيلي ، ص ٢٤٧ . الدكتـور عبدالواحد وافي : الاسفار المقدسة في الاديان السابقة للاسلام ، ص ١١٥

(٤) ن٠م : ص ١٠٩ .

(٥) الكلاعي : ٤٦٨ ، ابن عبد ربه : العقد الفريد ١٦٩/١ .

وتبرز العلاقة بين الموحدين « الاحناف » في الجزيـــره العربيه وبـــين الموجودين في الشمال بشكل واضح(١) ويشـــار الى اتصالهم ببعضهم وبانهـم كانوا ينتقلون في انحاء الجزيرة مبشرين بافكارهم . فقد كان ابن الهيبان من يهود الشام التجأ الى المدينة يبشر بظهور محمد (ص) ويرد ذكر رجل اخر من أهل الكتاب من يتماء (٢) ساعد هذا التمسك بجوهر الفكر العربي على تواصل الروح العربية واتاح المجال امام نموها مجددا وبرز تاثيره في ان نظرة العرب بدأت تتطور من تخصص كل قبيلة بعبادة آلهة فردية معينـــة الى اشتراك القبائل في عبادة آلهة عامة شاملة والى تخصيص بيت مقدس يجمعها هـــو الكعبة في مكة والاشتراك في تعظيمه في موسم الحج والاتجاه تدريجيا نحـــو التوحيد . غير ان هذه العوامل وهذه الحركة كانت بطيئة فمرحلة التفتت كانت طويلة واثارها قوية اختلطت في نفس العربي بنزعة المحافظة وكانـت تحتاج لتعلن عن نفسها ان تهزم العصبية القبلية السائدة والتي كانت قـــد اسقطت امارة كندة واستمرت تعيق تقدم العرب .

العرب والتحديات العالمية في القرن السابع الميلادي :

في أوائل القرن السابع الميلادي تحددتالتحديات الاساسية في أن التراكم الذي انتهى اليه التطور البشري في ظل الصراع الساساني ـ البيزنطي كـــان تراكما يتناقض مع الطبيعة البشرية اولا ، ثم مع روح العصر والتقدم ثانيا ، ويمكن تحديد التحديات التي واجهتها البشرية انذاك في :

أولا ـ ظاهرة الاحتلال والاستعباد :

فلقد مارس النظامان الساساني ـ البيزنطي عملية استعباد للشـــعوب

---

(١) انظر قصة زيد بن عمرو بن نفيل وابن الهيبان اليهودي وابو قيس بـــن الاسلت في سيرة ابن هشام ج١/٢٤٦/٢٥٥/٢٦٣ .

(٢) ابن سيد الناس : ١/٥٧ ، ٥٩ .

الخاضعة لسيطرتهما . وهي ظاهرة امتدت لتشمل معظم جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية ففي الجانب الاقتصادي كانت الفلسفة الاقتصادية لكلا النظامين تقوم على اساس الاقطاع ، وتركز الملكية في يد الحكام وأعوانهم من الاقطاعيين والنبلاء وقاد هذا بالضرورة الى أن يصبح سكان المقاطعات ايضا تابعين قانونيا للارض ، فهم جزء من الملكية الاقتصادية. وقد وجدت سياسة الاستعباد مجالا في سياسة الحروب والضم والاحتلال للامتداد والتحكم في طبيعة التطور وتوجيهه بالشكل الذى لا يناقض المصالح الجوهرية للقوتين الكبيرتين . وشملت فيما شملت الوطن العربي عندما سيطر الرومان ثم البيزنطيون على المغرب العربي ومصر والشام ثم عندما سيطر الساسانيون على العراق واليمن .

ثانيا ـ التخريب الثقافي (العودة الى الوثنية) :

مارست القوى السياسية الكبرى عملية اعادة ترتيب للاوضاع الثقافية في العالم بالشكل الذى يخدم فلسفتها وبما ان المعتقدات الدينية كانت جوهر التطور الثقافي والحضاري ووعاءه فقد انصبت التحريفات الثقافية على التوحيد. واذا كان الوطن العربي موطن اول المعتقدات الدينية وبالتالي أسبقها في الوصول الى التوحيد الديني ، فلقد تلقى أكثر ممارسات التحريف فقد تعرض التوحيد الى التحريف بدعم البيزنطيين والساسانيين على السواء . وعندما قام الرومان بتزييف المسيحية قام الساسانيون بالمقابل بحماية اليهود المحرفين لليهودية .

ثالثا ـ صراع القوتين وانعدام حالة الامن :

ساد العلاقات البيزنطية ـ الساسانية حالة صراع سياسي واقتصادي وعسكري انتهى الى حروب طاحنة . دفعت البشرية ثمنها باهظا ، وبلغت حدا من التعقيد بحيث اصبحت واقعا قائما في القرنين السادس والسابع وكابوسا يعيق الامن ويعدم الاستقرار ويؤثر على التقدم البشري ويجهض اي اضافة حضارية جديدة .

تحديات في النطاق العربي :

يضاف الى التحديات الدولية تحد اخر اقتصر على العرب تمثل في حالة الاحتلال الاجنبي لاراضي واسعة من الوطن العربي ، وما رافقه من استلاب اقتصادي وتخريب ثقافي ، وقد استمرت عمليات الضغط ومحاولات احتلال الجزيرة العربية من قبل القوتين .

ففي القرن السابع كان البيزنطيون قد تمركزوا في الشام ومصر والمغرب العربي ، وتمركز الساسانيون في العراق واليمن ، وعملت القوتان على تشجيع ظاهرة التفتت والتجزئة وتشجيع القبلية واجهاض محاولات العرب للتحرر من السيطرة والاحتلال ، فبعد سقوط كندة ، دمر البيزنطيون سلطة الغساسنة في الشام ودمر الساسانيون سلطة المناذرة في العراق .

لقد كانت هذه التحديات قوة فاعلة في المجتمع لا يستهان بها ، واصبح وجودها الى جانب تواصل الروح القومية لدى الامة عاملا حاسما في مخاض بشري جديد ، قوامه الامة العربية .

والذي يظهر في الروايات التاريخية يفيد باتساع نشاط الموحدين في الجزيرة العربية ، بشكل ساعد في تعزيز روح الامة والمحافظة على جوهر تطورها الفكري في التاريخ .



الفصل الثاني

عقيدة التغيير العربي في القرن الاول الهجري
« الرسالة الاسلامية »

١ ـ بيئة التغيير « مكة ـ قريش »

٢ ـ قائد التغيير « محمد بن عبدالله »

٣ ـ المبادىء الاساسية للسياسة العربية في القرن السابع الميلادي

٤ ـ مفهوم الامة عند الرسول (ص)

٥ ـ مجـالات التغيـيـر

١ ـ في الحياة الاجتماعية

٢ ـ في الحياة الفكريـة

٣ ـ في العلاقـات الاقتصاديـة

حددت عوامل الاصالة التأريخية ، وطبيعة التناقضات التي عاشتها الامة العربية ، والتحديات التي جابهتها ، الاتجاه العام لحركة التغيير العربي في القرن السابع الميلادي . وبسبب علاقة العرب بالشعوب المحيطة بهم ومعاناتهم من احتلال الاجنبي ، فقد تكون الوعي الجديد في الجزيرة العربية . وعي بطبيعة العلاقات الاجتماعية السائدة وحالة الظلم التي تعيشها الشعوب . فالى قبل قليل كانت الدولة الساسانية تعيش في ظل ثورة (مزدك) وهي مزيج من ديانة وافكار اجتماعية لم تبث السلطة الساسانية ان انقلبت عليها واستاصلت قواعدها الاجتماعية ، ولم تكن اوضاع شعوب الامبراطورية البيزنطية احسن حالا في الريف العربي في كل من مصر وبلاد الشام ، او في داخل حدود الامبراطورية خارج الارض العربية ، لذلك كان لابد لحركة التغيير العربية من ان تطرح قضية المستعبدين والمستضعفين ضمن عملية تجديد للحياة باعتبارها روح العصر الى جانب استيعابها لجوهر التطور التاريخي في الوطن العربي « التوحيد » .

بهذه العوامل تحددت حركة التغيير العربية فهي :

١ ـ حركة حضارية تفهم المسيرة البشرية على انها اضافات حضارية مستمرة يعبر عنها التوحيد والنشاط البشري في كل مجالاته .

٢ ـ حركة رفض للظلم وتحرير للمستعبدين والمستضعفين (١) .

٣ ـ حركة تجديد للحياة تتجاوز النزعة التقليدية المحافظة فهي حركة ديمقراطية ايضا (٢) . وكان طبيعيا في حركة تغيير مجرى حياة امة ان

---

(١) الانعام : ٨٢ (مكية) البقرة : ٢٧٩ (مدنيه) الاعراف : ١٣٧ (مكية) .

(٢) هوجمت النزعة المحافظة بمعنى التمسك بالقديم والوقوف ضد التغيير بمهاجمة دعوى المشركين بأنهم ورثوا دينهم عن اباءهم وتطرقت ٤٢ آية للهجوم بهذا الاتجاه .
راجع المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ص ٢-٣ .

تفكر باداة الوصول الى تحقيق هذا الهدف لذلك اتجه تفكير الرسول القائدة محمد بن عبدالله (ص) الى بناء الامة العربية قوة كبرى تمارس التغيير فهي وان كانت تبدو هدفا كبيرا ، الا انها في الواقع كانت هدفا غير مجرد ، انما ارتبطت بهدف انساني أوسع هو بناء الامة من أجل اعادة التوازن في العلاقات الانسانية لنشر الاسلام في العالم وتحرير الشعوب ووضعها على طريق التقدم والمدنية « وجعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا(١) » .

اذن كانت حركة التغيير العربي في القرن السابع تدور في حلقتين :ـ

الاولى ـ قومية ، بناء الامة العربية قوة كبرى تستطيع النهوض برسالتها الانسانية .

الثانية ـ انسانية قوامها شعور العرب بالمسؤولية اتجاه ما تعانيه البشرية من ازمة حضارية .

وقد بدأت عملية التغيير في النطاق القومي أولا ثم اخذت مجراها في النطاق الانساني بعد ذلك .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .

بيئـــة التغيير

مكـــة :

نشأت مكة في موقع يبعد عن البحر ٧٥كم ، تتجمع فيه طرق القوافل بين جزيرة العرب والشام . وأول مكان سكنه الناس موقع في الجبل المعروف (بابي قبيس) ثم نزلوا الى الوادى(١) ويقال ان الحجر الاسود كان مودعـا فيه(٢) . وتشتق جميع الاسماء التي ذكرت لمكة عبر التأريخ من القدسية والحرمة(٣) وذكرت في القرآن الكريم باسماء متعددة (٤) وذكر بطليموس موقعا في موضع مكة اسمه (مكربه) وهي تسمية مشتقة من مكرب : مقرب اي المقدس المقرب الى الاله وأصلها من اليمن وترتبط بالفترة السبابة القديمة(٥)، وتعاقبت على السكن فيها جماعات عربية عديدة مثل العماليق وجرهم وخزاعة الى أن جاءت قريش بقيادة قصي بن كلاب .

قريش : تربى قصي في شمال الحجاز(٦) ، فلما شب عاد الى مكة في عهد حليل بن حبشية الخزاعي وتزوج ابنته حبي ، وفي هذه الفترة انتقلت الرئاسة

---

(١) لسان العرب : « قبس » .
(٢) تاج العروس : ٢١٢/٤ .
(٣) البيت العتيق ، قادس ، بادر ، القرية القديمة ، (تاج العروس ٣١٢/١) أم رحمه الخاطمه ، الناسة ، كوثى ، (اخبار مكة : ١٨٩/١) تاريخ الطبري ٢٨٤/٢ .
(٤) الفتح : ٢٤ ، (بكه) ال عمران : ٦٩ ، (ام القرى) الانعام : ٩٢ تأريخ الطبري ٢٨٤/٢ .
(٥) جواد علي : ٢٦٧/٢ . ويحدد العلماء هذه الفترة بين القرن التاسع ــ القرن السادس ق.م .
(٦) طبقات بن سعد : ٣٦/١/١ر.
وانظر نسب قصي في شكل رقم (١) .

في مكه من خزاعة الى قريش . وفي انتقال الرئاسة الى قريش وقصي روايات متعددة . ويقال انه استعان باخيه لامه (رزاح بن ربيعة) في اخذ السيادة على مكة فساعده بنو عذره وبقية قضاعه . ويقال ايضا ان السيادة انتهت اليه بوصية حليل والد زوجته (١) . فلما جاء قصي بن كلاب انزل أهل مكة الى الوادي وقسم ما حول الكعبة الى خطط انزل فيها عشيرته الاقربين الذين عرفو « بقريش البطاح » . وامرهم بقطع شجر الوادى واستخدامه في بناء الدور . واسكن من بقي من القبائل في خارج الحرم وعرفوا « بقريش الظواهر »(٢) . وقد اهتم قصي بالكعبة فعني ببنائها . ووضع الحجر الاسود فيها ، وحفر الابار ونظم شؤون المدينة الاجتماعية . وأسس (دار الندوة) وكانت معظم لمور قريش تمارس فيها . ففيها يتزوج الرجال وتتم المشاورة في الامور العامة وتعقد رايات الحرب وتدرع الجواري عند البلوغ . كما أحدث وقود النار بمزدلفة(٣) . وكان لابد لهذه الاعمال من ان تعزز مكانة مكة عند القبائل وتزيد من الوافدين لها في موسم الحج فقام قصي بتنظيم موسم الحج وأوجد الوظائف التي تؤمن لوازمه واحتياجاته وأخذ لنفسه من هذه الوظائف الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء .

بدات مكة تتطور اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا وجاء هذا التطور في ظروف النضج العام في الوعي العربي لطبيعة المعتقدات الدينية ووصول العرب الى عبادة آلهة مشتركة وعامة واتخاذ الكعبة مركزا مقدسا وبيتا لهذه الالهة ثم بيت الله الذي عبر العرب عن تعظيمهم له بالحج .

---

(١) طبقات بن سعد : ٣٧/١/١ . ٣٨ انظر ايضا ابن دريد : الاشتقاق : ٢٧٧ . ٢٨٠ تاريخ الطبري : ٢/٢٥٥-٢٥٥١ .

(٢) طبقات بن سعد : ٤٠/١/١

(٣) طبقات بن سعد : ٣٩/١/١ . ٤١ تأريخ الطبري ٢٥٩/٢ سيرة بن هشام : ١٤٩/١ .

وقد افاد اهل مكة من التجارة والحج وما نجم عنهما من مقاييس اجتماعية موحدة واعرف وتقاليد مشتركة . وكان من نتائج التوصل الى تلك الصيغة من اعتراف القبائل العربية بالمكانة المتميزة لقبيلة قريش والتي عبرت عنها مواثيق قريش واتفاقاتها مع القبائل المعروفة بالايلاف . ولما سقطت اليمن بيد الاحباش واشتد الصراع في الشمال بين الساسانيين والبيزنطيين واضطربت التجارة العالمية ، افاد أهل مكة من موقعهم على الطريق التجاري البري بين الشام واليمن اضافة لقربه من الطريق البحري للتجارة عبر البحر الاحمر . في ممارسة نشاط تجاري مستقل . غير انهم لم يكتفوا بذلك اذ سرعان ما انتزعوا لانفسهم قيادة النشاط التجاري والانتقال بين الشام والعراق ومصر واليمن والحبشة ونشأ سوق عكاظ تعبير عن الدور الجديد لاهل مكة باعتبارهم الوسطاء الجدد في التجارة العربية الدولية(١) .

ومع ان ثمة اعراف وتقاليد ذات مغزى ديمقراطي وانساني ، نشأت في مجتمع مكة . مثل (دار الندوة) وحلف الفضول غير ان هذا لم يمنع بالمقابل نمو ظواهر وممارسات تعبر عن وضع اجتماعي واقتصادي وسياسي ارستقراطي ، اصطلح على تسميته « حق قريش »(٢) . غير ان هذا الحق تطور ليعبر عن ارستقراطية قبلية وتميز عن القبائل حتى في مواسم الحج . فقد اعفوا انفسهم من الوقوف على عرفة والاقامة فيها ولا يأتقطوا الاقط ولا يسلؤون السمن . ولا ينسجون مظال الشعر ولا يستظلوا الا في بيوت الادم (الجلود) وشرعوا لمن قدم في الحجاج ان يطوف بالبيت وعليه ثيابه ما لم يذهبوا الى عرفه فاذا رجعوا منها لم يطوفوا طواف الافاضة بالبيت الا عراة (٣) .

كذلك اختصت قريش بالوظائف الادارية الكبرى والوظائف الدينية والتي تتعلق بها وبالحج خاصة . ومنها التجار والراسماليون والاثرياء ، الذين

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ، ص ٩٥٩ .
(٢) طبقات بن سعد : ٣٩/١/١
(٣) طبقات بن سعد : ٤١/١/١ .

كانوا يأخذون الربا ويمتلكون الجواري ويتخذون العبيد الذين شـــكلوا فئة كبيرة من سكان مكة ، الى جانب فئات اخرى عرفت بالحلفاء وكان هؤلاء سادة قبائلهم وقادة نواديها حيث كان اللهو وممارسة قيم التخلف والتجزئة .وكانت لهم استثماراتهم في مدينة الطائف(١) . وكان هذا يعني ان ديانة الشرك حددت المناخ الثقافي العام لاهل مكة وقد افاد رجال مكة من ذلك فاحتكروا الى جانب الوظائف قيادة المجتمع من خلال المحافظة على الوضع القائم ومنع التقـدم ، فلقد كان مجتمع مكة مجتمع الرجال الكبار فقط ، وعبروا عن هذا بتحديد سن من يحضر الندوة بالاربعين ، ومع ان مكة شهدت اتجاهات ثقافية جديدة نتيجة الاختلاط الواسع وتراكم الخبرة من خلال التجارة والتقاء الثقافات في الاسواق وكذلك وجود جماعة لا تدين بالوثنية عرفوا بالاحناف ، الا ان هذه الاتجاهات لم تكن من القوة بمكان لتلعب دورا في حياة أهل مكة أو تغير منها شيئا فقد استمرت النزعة المحافظة على ما ورثه أهل مكة عن اباءهم .

محمد بن عبدالله (ص) (قائد التغيير) :

وسط هذا المجتمع نشأ محمد بن عبد الله (ص) وفيه بدأ دعوته الجديدة، ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب . امه آمنة بنت وهب ، توفي أبوه قبـل ولادته ، ولد في ١٢ ربيع الاول عام الفيل(٢) فتكفله جده عبدالمطلب ، ونشأ في بادية بني سعد لدى مرضعته حليمة السعدية(٣) ، وفي السادسة من عمره زار اخواله في يثرب فتعلم السباحة وتوفيت أمه اثناء عودتها(٤) ، وفي الثامنة من عمره توفي جده فكفله عمه ابو طالب(٥) . وفي التاسعة من عمره ذهب مع

---

(١) تاريخ الطبري : ٣٢٨/٢ .

(٢) ابن هشام ١٨١/١ طبقات بن سعد : ٦٢/١/١ ويقال ايضا الاثنين ٢ ربيع الاول « عام الفيل » .

(٣) ن.م : ٦٩/١/١

(٤) ن.م : ٧٣/١/١

(٥) ن.م : تاريخ الطبري : ٢٧٧/٢

عمه في تجارة الى بلاد الشام(١) . وفي هذا السن المبكر بدأ يتميز خلقيا عن صبية قريش ، فكان يتجنب التعرى عند اللعب . وفي الرابعة عشر من عمره حديث حرب الفجار بين هوازن من قيس عيلان وقريش وكنانه وشارك فيها الرسول (ص) (٢) وحضر حلف الفضول الذي دعا له اهل مكة اثر اعتداء وقع على أموال تاجر يماني (٣) . عمل في الرعي لاهل مكة (٤) ولم يرتد دور اللهو فيها (٥) . عمل في تجارة لخديجة بنت خويلد وعرف بالامين وفي الخامسة والعشرين تزوجها (٦) . وفي الخامسة والثلاثين عمرت قريش الكعبة واختلفت على رفع الحجر الاسود فحكم فيها محمد بن عبد الله (٧) .

وفي الاربعين من عمره نزل عليه الوحي اثناء تعبده في غار حراء ، وكانت أول آية نزلت عليه هي :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » . وبعد هذه الآية انقطع الوحي ، فحزن الرسول (ص) وابتدأ يرتاد الجبال الى ان نزل عليه مرة ثانية

---

(١) السهيلي : ٢٠٦/١ ، انظر ايضا طبقات بن سعد ٧٦/١/١ قال « اثنى عشر » تاريخ الطبري : ٢٧٧/٢ الحوار بينه وبين بحيري الراهب يدل على نضج مبكر . وفي رواية بن سيد الناس انه ذهب ومعه ميسره حيث تنبأ الراهب نسطورا بنبوته وان هناك علاقة بين ميسره ونسطورا ٤٨/١٤ .

(٢) سير ابن هشام : ٢٠٩/١ ايضا طبقات بن سعد ذكر عشرين سنة ٨١/١/١ .

(٣) طبقات بن سعد : ٨٢/١/١ .

(٤) طبقات بن سعد : ٧٩/١/١ الكلاعي : ١٩٠ .

(٥) تاريخ الطبري : ٢٧٩/٤٢ ، الكلاعي : ١٩٦

(٦) طبقات بن سعد : ٨٣/١/١ وتردد على ذى مجاز مع عمه ابي طالب ٩٨/١/١ تاريخ الطبري : ٢٨٠/٢ .

(٧) طبقات بن سعد : ٩٣/١/١ تاريخ الطبرى : ٢٨٣/٢ .

بالآية الكريمة « والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللاخرة خير لك من الاولى » ويقال ان فترة انقطاعه استغرقت سنتين ويقال سنتين ونصف(١) .

ثم نزلت الاية « يا ايها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر وثيابك فطهر » وكان معنى هذا ان الله امر نبيه بالتبشير .

المبادىء الاساسية للسياسة العربية في القرن الاول الهجري

ان البحث في المبادىء الاساسية للسياسة العربية في القرن الاول الهجري يحتاج الى فهم دقيق للمصادر الاساسية التي تشتق منها المبادىء السياسية، وتتحدد في ضوئها خطة العمل لتحقيق تلك المبادىء ، وفي مقدمتها القرآن الكريم ، وكذلك استيعاب الشخصية القيادية الفذة للرسول القائد الشخصية العظيمة التي لم تكتسب عظمتها لمقوماتها الذاتية ، أو قدرتها على تبليغ الرسالة حسب ، انما في مقومات القيادة المتعددة الجوانب ، ولعل ابرز دلائل تلك السمات القيادية : هو ان الرسول الكريم (ص) لم يترك امرا من أمور الحياة العربية في أدق مفاصلها الا أعطى فيه حكما (٢) .

ويجب ان نعترف هنا ان ايا من المصدرين لم يدرس بشكل يسهل فهمه واستيعابه واستكشاف المبادىء والقيم الواردة فيه ، علما بان مثل هذه الدراسة ضرورية لاستكشاف الكثير من القضايا المهمة وفي مقدمتها طبيعة العصر والاتجاهات السائدة فيه ، وبالتالي تحديد موجبات الاحداث .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٠٢/٢ الكلاعى : ٢٧١ .

(٢) بالامكان الرجوع الى كتب الصحاح للاطلاع على دقة الاحكام التي اصدرها الرسول (ص) وتنوعها وتعدد مجالاتها واهم هذه الكتب مما سوف نستخدمه في كتابنا .

— صحيح البخاري

— صحيح مسلم

غير ان هذا لن يكون مانعا لاية محاولة تهدف الى دراسة المبادىء الاساسية للسياسة العربية فهناك قدر من المرونة يكفي للالمام بالاسس العامة .

المنطلقات النظرية :

انطلقت السياسة العربية في القرن الاول الهجري من موقف نظري جوهره نظرة شاملة الى الكون ثم تحديد موقع العرب فيه بدقة وقد عكس القرآن الكريم هذه النظرة وحدد اطارها ، فهي اساسا ترتكز الى حركة التوحيد في الوطن العربي . وهي الحركة التي ارسيت اسسها في مبادىء التوحيد عند نوح وهود وصالح وابراهيم الخليل والتي تبلورت واكدت نفسها في كتب موسى وعيسى (قبل التحريف) ثم القرآن الكريم والتي لقدمها واستقرارها وثبوتها اصبحت سمة خاصة بسكان الوطن العربي بل جوهر خصوصيتهم .

يقوم التوحيد اساسا على فكرة الاله الواحد ، ويعرف في القرآن بالرحمن(١) والله « قل ادعو الله او ادعو الرحمن(٢) ومبادىء التوحيد هي الايمان بالله والانبياء والملائكة والكتب السماوية والحياة الاخرة وهي جميعا تشكل العناصر الاساسية في ايمان المؤمن (٣) ، وقد وردت هذه المبادىء جميعها او معظمها في حركة التوحيد منذ القديم (٤) وكل ما سواها تحريف وشرك (٥)

---

(١) المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، ص ٣٠٧ ورد ذكر الرحمن في القرآن الكريم في ٤١ اية مكية وفي خمسة ايات مدنية . « رب السموات والارض وما بينهما الرحمن » النبأ : ٣٧ « والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم » البقرة : ١٦٣ .
(٢) ن.م : ص ٤٠-٤٢ ، وردت كلمة الله في ٢٦٩٧ اية في القرآن الكريم .
(٣) الاسراء : ١١٠ (مكية) .
(٤) يوسف : ٣٨ (مكية) واتبعت ملة ابائي ابراهيم واسحق ويعقوب .
(٥) ال عمران : ٦٧ ، النساء : ٤٦ .

والله خالق كل شيء (١) ، فهو ابرز الثوابت ، بل ثابت مطلق خلق الكون والانسان من ضمنه ، غير ان هذا الانسان خلـــق ليسعى في الارض ، وينتفع منها ، وان هذا الانتفاع يتم بالعمل فالعمل اساسي للارتقاء بالانسان ومقاييس هذا العمل ان يكون مرتبطا بالصالح العام (٢) فمسيرة الانسان في الحياة محكومة بالصالح العام والذي هو أساس التقييم في الحياة الاخرة (٣) وبما ان الانسان يعمل فهو بعمله قد يخطيء الا ان الله غفور رحيم لمن يتوب ويتراجع عن خطأه (٤) . على أن التأكيد على العمل لم يأت بمعزل عن العناصر الاساسية للايمان انما يؤكد على التلازم بينهما بل ضرورته فالايمان المطلوب ايمان بمبادىء التوحيد وتطبيق للمقاييس الاجتماعية التى يفرضها الايمان بالتوحيد (٥) .

واذا كانت الدعــوة الى الايمــان بالتوحيد تمثل التصور لطبيعة الموقف الانساني (النظرة الكونية) فان ارتباط هذا التصور بمقاييس اجتماعيــة

---

(١) فصلت : ٥٣ ، البقرة : ١٦٤ .
« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التـــي تجرى في البحر بما نفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والســحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون » .

(٢) اكد القرآن الكريم على العمل فقد ورد ذكره في ٣٦٥ اية وبصيغ متعددة.

(٣) ذكرت الحياة الدنيا في القرآن الكريم في ١١٥ اية والمنحى العام فيها يميل الى استسـخافها واستسـخاف تعلق الانسان بها لانها متـــاع الغرور ، وذكرت الاخرة في ١١٥ اية طابعها العام تعظيم الحياة الاخرة وتفضـــيلها على الحياة الدنيا .

(٤) الانعام : ٥٤ (انه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده واصلح فانه غفور رحيم) .
فصلت : ٤٦ (من عمل صالحا فلنفســه ومن اساء فعليها وما ربـــك بظلام للعبيد) .

(٥) البقرة : ١٧٧ (ليس البران تولوا وجوهكم ...) .

محددة يفترض ان يشتق من هذا الموقف الانساني موقف اجتماعي محوره الامة التي تمارس تحقيق الموقف الانساني فالتوحيد هنا ثورة ولابد للثورة من اداة اذ لا ثورة بدون اداة على هذا الاساس اصبحت مسالة بناء الاداة (الامة) الحلقة الثانية في السياسة العربية وبناء الامة يحتاج الى التحرر من القديم ومقاييسه لانها مستمدة من مرحلة قوامها الاحتلال الاجنبي والوثنية والشرك والتخلف العام والشامل .

ان الترابط بين التوحيد الديني وبين مقاييس اجتماعية اعطى التوحيد الديني بعدا سياسيا واجتماعيا بمعنى انه حوله الى سمة اساسية للحركة التأريخية في ذلك العصر واصبحت وحدة الامة(١) هي الاطار العام للسياسة العربية واصبحت الدعوة الى التحرر الاجتماعي والثقافي والسياسي والاقتصادي تهدف اساسا الى تجاوز ما يعيق تحقيق الوحدة وتحديد سمات المجتمع المطلوب بناءه .

الدعوة الى التغيير :

شكل تأكيد القرآن على مبدأ التوحيد وما يتبعه من مبادىء اجتماعية وثقافية واقتصادية دعوة للتغيير الاجتماعي الشامل غير ان هذا التغيير يجب ان يبداه الانسان ذاتيا دونما انتظار تدخل « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » (٢) حتى ان طلب التغيير لم يرد سوى في ايتين ولو شاء الله لغير ولكن ، هذا النوع من التغيير سهل ، وبما ان المطلوب هو اعادة بناء الانسان وتنظيم حياته فعليه ان يتغير بعد ان نبه الى ذلك ووعى اعباء التغيير.

والتغيير المطلوب يبدأ بالفرد لان الاسلام حدد المسؤولية الاخلاقية بانها فردية فالانسان يجزى بما كسبت يده فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن

---

(١) وردت كلمة امة في ٥١ اية في القرآن الكريم تعبيرا عن كيان بشري موحد انظر المعجم المفهرس : ص ٨٠ .

(٢) الرعد : الانفال : ٥٣

يعمل مثقال ذرة شرا يره (١) . ولا تزر وازرة أخرى (٢) ، ويوم القيامة لا يسأل والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، انما الانسان مسؤول عن نفسه . على العكس من قيم المجتمع البدوي حيث المسؤولية اجتماعية يؤخذ الفرد فيها بجريرة غيره وخاصة في الثأر . فالمجتمع الجديد لا يعترف بالوراثة والنسب والثروة والمركز والنفوذ مقاييس اخلاقية او قيما اجتماعية مقبولة .

وهذا التغيير جذري ينقلب فيه الفرد على ذاته انقلابا يصل الى الروح ولا يتوقف عند حدود الاشكال والمظاهر فهو تغيير للجوهر لان الصفات الظاهرة في سلوك الانسان هي انعكاس لجوهره وقد ركز القرآن على هذه النقطة بشكل دقيق « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله بقلب سليم » (٣) ، ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب (٤) « انما الاعمال بالنيات وانما لكل مرىء ما نوى » (٥) وحدد القرآن الكيفية التي يتغير بها الانسان والامور التي يؤمن بها والاعمال الصالحة التي يجب ان يعملها (٦) .

والتغير المطلوب يصل الى حد الانفصال التام عن القديم وعن الحياة القديمة وتقاليدها وقيمها وروابطها حتى وان كانت تلك الرابطة شخصية تشد الفرد الى أهله ، « ما كان للنبي والذين أمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له انه عدو الله تبرأ منه ان ابراهيم لاواه حليم (٧) .

---

(١) الزلزلة : ٨٧ .

(٢) الانعام : ١٦٤ ، الاسراء : ١٥ ، فاطر : ١٨ ، الزمر : ٧ النجم ٣٨

(٣) الشعراء : ٨٩

(٤) الحج : ٣٢

(٥) ق : ٦

(٦) انظر ص

(٧) التوبة : ١١٢-١١٣ .

ان مثل هذه الصفات وفي ظروف نضج الامة وسيطرتها على ظروف حياتها وتملكها مستقبلها تتيح للفرد ان يفكر بحياته ومتطلباتها دونما تعارض مع الصالح العام ، أما في حالة التفكك والضعف حيث يتعذر على الفرد اكتشاف شخصيته القومية ، يصبح اهتمام الفرد بمتطلبات حياته اهمالا للصالح العام ، موجها ضده ، ولا يعود الفرد فردا في امة يتغذى ليغذيها انما يصبح خصما لها يقوى من ضعفها ويسمن من جوعها وهو وضع شاذ بينما الوضع السليم للفرد في امة ان يستمد قيمه من فلسفتها ومن روحها التي هي المنظم الاساس للمجتمع وحركته اليومية .

مفهوم الامة عند الرسول :

ان البحث في مفهوم الامة عند الرسول يستلزم استيعاب مفهومها في القرآن وقد ذكرت كلمة « امة » في تسع واربعين اية بصيغة المفرد وفي ايتين بصيغة الجمع المخاطب ، وبمعنى الجمع غير المعرف في ثلاث عشر اية(١) .

وقد تعددت معاني الكلمة غير ان مدلولها الرئيس هو كياني ـ اجتماعي ـ ثقافي ، فالامة في القرآن مقرونة بمسالة المتقدات الدينية ، وبما ان هذا الكيان يتكون من اجيال فقد استخدمت كلمة (امة) مجازا بمعني الـوقت (حقبة) او (دهر) (٢) ولانها كيان اجتماعي ـ ثقافي فقد استخدمت ايضا مجازا بمعنى الاشارة الى التمثل والتجسد فابراهيم الخليل كان امة(٣) واباء المشركين كانوا على امة (اي على عقيدة امة هي الشرك) (٤) ومثل هذه الاستخدامات المجازية في العربية كثيرة وحتى عصرنا هذا نستخدم هذا المجاز في محاولة الوصول الى معنى عميق دقيق وشبيه بما ورد عن ابراهيم قول

---

(١) المعجم المفهرس : ٨٠

(٢) سورة هود : ٨

(٣) سورة النحل : ١٢٠

(٤) سورة الزخرف : ٢٢ ، ٢٣

القائد المؤسس عن الرسول الكريم (ص) : كان محمد كل العرب فليكن كل العرب اليوم محمدا(١) .

ومن مجموع الايات التي وردت فيها كلمة امة تتخصص ثلاث ايات بالعرب في زمن الرسول الكريم (ص) ففي الاية « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا(٢) » وفي الاية « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر(٣) » وفي الاية « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٤) يقصد العرب دون غيرهم بل في الاية « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدوني(٥) » يقصد الامة العربية عبر التاريخ فالامة هنا كيان اجتماعي ـ ثقافي متواصل عبر التاريخ لان الايات التي تقدمت هذه الاية كانت تتحدث عن الانبياء وكلهم عرب ونزلوا في الارض العربية وفي اجيال عربية متعاقبة .

لقد استخدم الرسول (ص) كلمة «الامة» بمعنى كيان اجتماعي ـ عقائدي في وثيقة المدينة « هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم، انهم امة واحدة من دون الناس(٦) » . فالامة هنا كيان بشري ـ عقائدي في طور النمو والتكون لانه يرتبط بحركة هدفها الاحتواء (تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم) وهي عملية تكون مشروطة بالايمان فهي اذا تكتسب كل بعدها الاجتماعي عندما تكتمل عملية تحققها .

---

(١) في سبيل البعث : ص ١٢٦
(٢) البقـــرة : ١٤٣
(٣) ال عمران : ١٠٤
(٤) ال عمران : ١١٠
(٥) الانبياء : ٩٢ نفس المعنى في المؤمنون : ٥٢
(٦) ســيرة بن هشام : ٢٤١/٢

اتجه الرسول (ص) في عملية بناء الامة الى العرب الوثنيين فخيرهم بين القتل او الاسلام ولم يقبل منهم الجزية في حين نجده يضع الجزية على من كان على الوثنية من غير العرب(١) ، وفي تقدير الفقهاء لسبب حكم الرسول (ص) هذا يقول ابو حنيفة : لئلا يجرى عليهم (العرب) صفار(٢)

« فهذه أحكام الاسارى والمن والفداء والقتل وكانت هذه في العرب خاصة لانه لارق على رجالهم وبذلك مضت سنة رسول الله انه لم يسترق احدا من ذكورهم وكذلك حكم عمر فيهم ايضا(٣) » .

ويروى عن الرسول (ص) قوله : اذ عز العرب عز الاسلام واذا اذل العرب ذل الاسلام .

ان توجه الرسول (ص) لبناء الامة العربية توجه طبيعي ، فهو يحتاج الى امة تحمل الرسالة الجديدة وتناضل لاجل انتصارها ، وبحكم انتمائه القومي كان طبيعيا ان يتجه الى بناء الامة العربية . ونظرا لاوضاع التخلف التي يعيشها العرب اصبح ضروريا ان تبدأ عملية بناء الامة باجراء تغيير جذري شامل في حياتها يؤمن باصالتها التأريخية ويستوعب مبادىء التغيير الجديد وروح العصر ، ومن هنا نشأ ترابط عضوي بين مفهوم الامة في القرآن والمفهوم الاجتماعي والثقافي والتأريخي للامة عبر عن نفسه في التجاوب والانشداد بينهما . ولعله من المفيد الاشارة الى أن كل هذا التوجيه كان ينطلق من الدعوة الى التوحيد وعدم الشرك بالله .

مجالات التغيير :

في الحياة الاجتماعية :

حددت السمة الاساسية للمتجمع العربي قبل الاسلام ، بانه مجتمع متخلف ، وابرز مظاهر تخلفه تعلقه بأمور الحياة المادية مثل :

١ ـ احتكار الذهب والفضة وخزنها .

---

(١) القاضي ابو يوسف : الخراج ، ص ٧٠ ايضا الاحكام السلطانية ص ١١٨

(٢) ن.م : والصفار : المذلة والمهانة وانتقاص المكانة . وما بين القوسين اضافة للايضاح .

(٣) ابن سلام : الاموال ، ص ١٣٣

٢ - الاهتمام بالجنس .

٣ - الاهتمام بامتلاك مظاهر الترف كالخيل .

٤ - التفاخر بالابناء .

٥ - البخل(١) .

٦ - الكذب(٢) .

وبما ان الحياة الدنيا ليست نهائية فالاهتمام بها وبمظاهرها المادية على حساب قيمة الحياة الجوهرية (العمل الصالح) نوع من العبث والمتاع الفاني، وهي قيم تحط من قيمة الانسان وتثير البغضاء والحسد وتشجع الاستغلال والاستعباد وتؤدي الى الظلم وهي أيضا قيم يتم اختيارها دون وعي حقيقي للكون وفي عزلة تامة من المكان والزمان لا تعبر عن جوهر واصالة ولا تقود الى مستقبل . لذلك على الانسان ان يتخلى عنها وان يبدأ من جديد منطلقا من الايمان بالله ومعتنقا القيم التي تنسجم مع انسانية الانسان . وهذه القيم تتحدد في مجالات متعددة ابرزها :

١ - قيم الاحترام والمحبة والحرص على العلاقات العائلية .

٢ - قيم تتعلق بالطهارة والتحصن والابتعاد عن الفساد والزنى والفواحش .

٣ - قيم تتعلق بالاخلاص والصدق والابتعاد عن الكذب والخيانة .

٤ - قيم تتعلق بالعدل .

٥ - قيم تتعلق بالوفاء بالعهد والامانة .

٦ - قيم تتعلق بعدم الاعتداء على أموال الناس وتجنب السرقة والربا والاحسان للناس .

٧ - قيم تحث على العمل الصالح وعمل الخير والأنفاق للمحتاجين .

---

(١) آل عمران : ١٤ ؛ المعجم المفهرس : ٥٩٣د ؛ ٥١٩د هوجم الفساد والفسق والفحشاء في اكثر من ١٣٠ اية .

(٢) المعجم المفهرس : ٥٩٨د ؛ ٦٠٢ هوجم الكذب والكذابون في اكثر من ٢٦٠ اية في القرآن الكريم .

٨ – قيم تتعلق بالمحبة والمودة .

٩ – قيم تتعنق بالصبر والجهاد والتضحية .

١٠– قيم تتعلق بالشعور بالمسؤولية (١) .

في الحياة الفكريـة :

مثلت الدعوة الى التوحيد والايمان بالله واحد وعدم الشرك به دعوة الى التغيير الجذري للحياة العربية بكل مافيا من مباديء ومقاييس خلقية وتقاليد اجتماعية ومظاهر وعي باعتبارها مظاهر متخلفة ترتبط بمستوى متخلف من العقائد الدينية ولا تشكل وعيا حقيقيا بحركة الكون انما هي مجرد افكــار ومعتقدات موروثة عن الاباء وهي ليست تعبير عن وعي حقيقي بقدر ما هي خبرة محدودة (٢) . ولم يكن من باب الصدفة ان يبدأ القرآن بالآية التي تأمر بالقراءة واطلاع والتزود بالمعرفة « اقــرأ باســم ربــك الــذي خلــق ، خلــق الانــان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » فالتعلم مرافق للايمان وضروري . لقد خاطب القرآن العقل العربي بصيغــة التوعية والتأكيد على الوعي والتعلم وتتكرر في القرآن الكريم الكلمات المعبرة عن العلم والعقل والتفكير (يعقلون) (تعقلون) (علم) (يعلمون) (تعلمون) (اعلم) (اعلموا) (يتفكرون) (٣) وأثار القرآن أمام العقل العربي جملة من الامور الفكرية التي تحتاج الى نشاط عقلي وصفاء ذهني لادراكها : « ان في خلق الســموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها

---

(١) وردت هذه القيم في العديد من الايات القرآنية الكريمة وللاطلاع عليهــا يمكن مراجعة المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم وتتبع هذه الكلمات والاطلاع على الايات التي وردت فيها .

(٢) الصافات : ٦٩ – ٧١ ، البقرة : ١٧٠ ، المائدة : ١٠٤ .

(٣) انظر المعجم المفهرس : ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٥٢٥ (٢٢ اية ، ٢٤ اية ، ٨٠ اية ، ٨٥ اية) .

وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون (١) .

والتأكيد على الوعي نابع من دوره في تعزيز الايمان وان الله يريد للناس ان ينعلموا « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » (٢) لذلك هوجم قليلوا المعرفة والذين لا يتعلمون « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون (٣) » ، كما هوجمت المدركات الثقافية لهم وتركز الهجوم على جوهر ثقافتهم ، العقائد الدينية وتقاليدها في عملية مقار نةلتلك العقائد ببعض الحقائق الملموسة في حياة لانسان (٤) : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين (٥) » فالوعي واحد من العوامل التي تكشف للفرد حقيقة الكون وتجعله مدركـــا قوانينه ومحددا موقعه من حركته ، محررا فكره من سيطرة قوى التخلف والجمود . لذلك كانت مخاطبة العقل ومحاولة تنويره ســــمة اساسية في الدعوة ، فالدعوة الى التحرر الفكري هدفها اخراج الفرد الجاهلي من عزلة المكان ووحشة الزمان ، وكشف الماضي له وتوعيته بالمستقبل باعتباره نقطـة الهدف في السعي والجهد المبذول ، وربط حركته اليومية بقيمة اكبر واشمل، بالحركة الكونية بدل ارتباطها بوثنية لا تمثل الا عقم الفكر وجموده .

في العلاقات الاقتصادية :

هاجم القرآن المظاهر المادية التي استعبدت الانسان والمجتمع عمومـا والمتمثلة في الاحتكار واكتناز الاموال (٦) والربا الفاحش (٧) والاعتداء عـلى

---

(١) البقـــرة : ١٦٤
(٢) الاعراف : ١٧٦
(٣) الانفـــال : ٢٢
(٤) الاعراف : (١٩١-١٩٧)
(٥) الجمعـــة : ٢
(٦) التوبة : ٣٤ « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » .
(٧) البقـرة : ٢٧٨ « يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما تبقى من الربا »

أموال اليتامى والمساكين(١) ، والبخل(٢) واستخدام الاموال اداة في الظلم الاجتماعي واستعباد الانسان ، وهاجم اهتمام الانسان بالمظاهر المادية المجردة والنزعة الربحية والانانيـــة التي طبعت العـــلاقات الاجتمـاعية وقـادت الى استخدام الاموال في استغلال الاخرين مما أفسد العلاقات الاجتماعية وافقدها انسانيتها وحول الحياة الى جملة قيم مادية مجردة تستعبد الانسان وتربيـه على استعباد الاخرين(٣) ، كما هاجم الطبقات التي تستخدم اموالها في الظلم أو تلك التى تجمعها بالباطل(٤) .

وبالمقابل دعا الى عدم الاستسلام لسيطرة المادة المجردة والنزعة الربحية على الانسان وعلاقاته الاجتماعية والى ضرورة استخدام الاموال في اوجههـا لصحيحة والانفاق في سبيل الاعمال الصالحة وعدم استخدام الاموال فـي لظلم (فلكم رؤوس اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وان كان ذو عسرة فنظرة لى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون) (٥) .

لم تكن الدعوة الى التحرر الاقتصادي دعوة مثالية، انما هي دعوة واقعية منطلقة من فلسفة ترى ان الحياة ليست مجرد جمع للثروات وان الثروات مع اهميتها في العمران البشرى وتقدم الحياة وكونها أمر ضروري لادامتها الا انها ليست شيئا مجردا انما ترتبط بقيمة اكبر فهي من الامور المكرسة للارتقاء بالانسان فالانسان هو القيمة والمادة امر تابع وليس قائدا له .

---

(١) الانعام : (١٥١-١٥٢) « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي احسن حتى يبلغ أشده » .

(٢) ال عمران : ١٨٠ « سيطوقون بما بخلوا به يوم القيامة » .

(٣) هوجم الظلم بصورة عامة في القرآن في ايات متعددة (المعجم المفهرس ص : (٤٣٤-٤٣٨) كما هوجم جمع الاموال (ن.م : ص ٦٢١) ، وهوجمت الاموال بصورة عامة اذا اسيىء استعمالها القرآن ن.م : ٦٨٢-٦٨٣ .

(٤) التوبة : ٣٤ « ان كثيرا نمه الاحبار والرهبان ليأكلوا أموالالناس بالباطل»

(٥) البقـــرة : ٢٧٨ .


كتب تاريخ وعلوم أخرى
facebook.com/hisy.books

الفصل الثالث

ستراتيجية بنـــاء الامـة العربيـــة

١ ـ بناء اداة التغيير (مرحلة مكة)

٢ ـ بناء قاعدة التغيير (مرحلة المدينة)

٣ ـ تعميم المجتمع الجديد

ستراتيجية بناء الامة العربية :

كان الامر الذى نقله الوحي للرسول القائد (ص) يتضمن ضرورة الوعي بالخالق وتنظيم علاقة الانسان بالكون ، وكان نزول الاية الاولى من القرآن الكريم (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) يعني عمليا تضمنها الامور الاساسية التالية :

اولا — ان التوحيد هو النظرة الكونية الصحيحة للانسان .

ثانيا — ان الانسان واحد من ابرز مظاهر هذه الحركة ، وانه يستطيع من خلال الوعي « القراءة والتعليم » ان يدرك الكثير من قوانين الكون ، وان يكون له موقف ارادي خاص جوهره الوعي بهذه الحقيقة .

وتشير المصادر الاسلامية الى انقطاع الوحي بعد هذه الاية مدة تتراوح بين (٢-٥ر٢) سنة(١) ومع أن معلوماتنا قليلة عن هذه الفترة غير انه من الواضح ان الرسول الكريم (ص) بدأ فعلا بحصر اهتماماته الفكرية بمسألة التوحيد وكيفية تثبيتها عقيدة اجتماعية تحل محل الاوضاع السائدة انذاك ويستطيع بواسطتها من قلب الحياة العربية ووضعها على طريق التقدم وقد أفاد في هذا المجال من الجو العام المحدود الذي انضجته الى حد ما حركة الاحناف ، ومع قلة معلوماتنا عن الاحناف غير ان اقتران اسمهم بالحنيفية وهي الصفة التي كانت تطلق على الموحدين (٢) تجعلنا نفترض انهم كانوا

---

(١) سيرة بن هشام : ٢٨١/١

(٢) يمكن الرجوع الى سورة ابراهيم ، سورة نوح ، سورة هود للاطلاع على بعض المعلومات عن طبيعة الحنيفية في القرآن ، أما في المصادر التاريخية فليست لدينا اشارات الى طبيعة الديانة او شخصية القائمين بها .

متمسكين بالتوحيد وانهم نجحوا في نشر بعض مظاهر الوعي بحركة الكـــون والمظاهر المدركة فيها . يوحي المناخ العام للروايات بان حركة الاحناف اكتفت بالدعوة الى عبادة الله فقط ، وباستثناء اثار التوحيد في شعر امية بـن ابي الصلت (١) لا نجد مؤثرات لهذه الحركة ، وحتى شعر امية لا يوحي بوجود مبادىء عامة خارج نطاق المعتقد الديني للاحناف .

لا شك ان الرسول الكريم (ص) مع ادراكه لضرورة التمسك بالتوحيد والدعوة الى عبادة « الله » او « الرحمن » كما ورد في القرآن الكريم ، كان يرى طبيعة الخلل في العلاقات الانسانية ومظاهر ذلك الخلل ، وبالتالي فانه لم يجد جدوى في طبيعة حركة الاحناف ، وعندما أمره الله بالتوجه الى الناس ودعوتهم (٢) ، كان مدركا لاهمية تجاوز صـــيغة التـــأمل المجـــرد والترهب والتنسك الى الانتقال بالدعوة الى حالة الفعل الاجتماعي ومباشرة عملية التغيير لمجرى الاحداث ، وهي حالة تستوجب بناء الاداة التي ترتفع في نضجهـــا وتكونها الى مستوى الرسالة الجديدة ، التي عبر عنها بقوله « يا أيها الناس قولوا لا إله الا الله تفلحوا تملكوا بها العرب وتذل لكم العجم » (٣) ثم تحملها الى الناس ، فهي رسالة تحتاج الى اداة ، بل لا بد من أداة . « منهم طائفة ليتفقهوا في الدين وينذروا قومهم » (٤) .

بنـــاء أداة التغيير :

كانت مهمة الرسول (ص) في بناء اداة التغيير قد تحددت في مرحلتـين اساسيتين :

الاولى ـ بناء الانسان الجديد نموذج التغيير ، وهي مرحلة استغرقتها فترة الدعوة في مكة واستمرت عملية انضاجها في المرحلة الثانية .

---

(١) انظر اخبارو شعر امية بن أبي الصلت لا سيرة بن هكم

(٢) المدثـــر

(٣) سيرة بن هشام : ٢٨١/١

(٤) التوبـــة : ١٢٢

الثانية – بناء نواة المجتمع الجديد ، وهي مرحلة استغرقت وقت الدعوة في المدينة واكملها من بعده خلفاؤه .

ومثل هذه المهمة مهمة شاقة ، فلم تكن الشخصية المطلوبة اعتيادية انما ذات مواصفات تضمن مقومات عالية واستثنائية للتحمل والابداع من اجل ان تكون الاداة المسيطرة على الظروف والزمن معا .

اولا – بناء الانسان الجديد (مرحلة مكة) :

مارس الرسول الكريم (ص) عملية بناء الاداة الطليعية في مكة ، بالاتصال الفردي المباشر ، على اساس من الايمان بوحدانية الله ، والايمان بالامة العربية ، والعمل على توحيدها وتحررها ، غير أن التركيز كان على ضرورة تحقيق الانسلاخ الفكري والسلوكي عن مرحلة التخلف « الجاهلية » .

فالحركة التي تتصدى لتغيير مجرى الحياة في أمة يجب ان تقلب القيم السائدة ، ولا شك ان القيم المألوفة الشائعة انذاك كانت منسجمة مع الاوضاع التي تغذيها لذلك لا يعقل ان تظل هذه القيم سائدة(١) .

وكانت الدعوة الى الانسلاخ عن التخلف عميقة شاملة ذات بعدين :

الاول – ذاتي يتعلق بالانسان نفسه يهدف الى تخلصه من الافكار والقيم والممارسات السلبية التي ورثها من حياته الاجتماعية السابقة لانتماءه وتغيره تغيرا جوهريا يبدأ داخليا وينسحب على مظهر الانسان وعلاقاته ومواقفه .

الثاني - اجتماعي يمتد إلى علاقة الانسان بأسرته وبمجتمعه « القبيلة » والمجتمع العام في ضوء العقيدة الجديدة ومبادئها والقيم والعلاقات التي تتطلبها بل أن القرآن رفض اي خيط مهما كان واهيا يعبر عن هذه العلاقة (ما كان للنبي والذين امنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب

---

(١) القائد المؤسس : في سبيل البعث ، ص ٣٠

الجحيم ، وما كان استغفار ابراهيم لابيـــه الا عن موعدة وعـدها اياه فلما تبين له انه عدو الله تبرأ منه (١)) . لذلك كان أهل مكة يتهمونه بانه « يفرق بين المرء واخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته » (٢) .

جاءت الدعوة الى الانسلاخ عن التخلف في شكل دعـــوة الى التحـرر الاجتماعي والثقافي والسياسي في ضوء مبادىء وقيم مؤشرة(٣) . توفرت لها العديد من الايات الكريمة التي نزلت في مكة والتي كان من أبرز ما يميزها : الهجوم العنيف على (روح المحافظة) باعتبارها ابرز ما يشد الانسان الـى مرحلة التخلف ، وفي الوقت نفســه تشكل مناخا غير ديمقراطي من العلاقات الاجتماعية ، يحول دون تربية حقيقية تصل الى جوهر الانسان (٤) ، ولم تكن ظروف الرسول في مـكة من المرونة بحيث يمارس عملية التغيير ، أو يشرف عليها ، بسبب عنف المجابهة التي مارسها المشركون ، لذلك اقتضت الظروف أن يقوم الانسان بممارسة التغيير مع نفســه وبجهده الخاص ، اعتمادا عـلى استيعابه للمبادىء وفهمه لقيمها ، وقدرته على التطبع بها ، والانفصال عن القيم القديمة مستفيدا من المؤشرات في القرآن الكريم .

كان جوهر عملية التربية في مكة يقوم على اساس أن الانسان المؤمـــن ليس كبقية الناس ، يتميز عنهم بأنه اكثر منهم وعيا وشـــعورا بالمســـؤولية اتجاه الكون والامة ، وانه لهذا يقف في طرف مناقض للاخرين ، ولكي يستطيع أن يغير الاخرين يفترض فيه أن يكون متميزا عنهم بصفاته وروحه واخلاقه ، وانه يجد هذه الصفات والاخلاق الجديدة في ماضي أمته الذي ظهر فيه الناس مصلحون مثله ، وانهم كانوا متميزين عن الاخرين بصفاتهم ، لذلك تضمن

(١) التوبة : ١١٢-١١٣

(٢) سيرة بن هشام : ٢/٤ ، ١٢

(٣) انظر ص : ٤٥ و . القيم التي اعتبرهان القرآن قيما أصيلة وايجابية ودعى للتحلي بها .

(٤) ســـبأ : ٤٣ ، الزخرف : ٣٢-٢٤ ، نعمان : ٢١ ، البقرة : ١٣ .

القرآن الكريم قصص الانبياء(١) الذين ظهروا في تأريخ الامة العربية ، وارتبط كل منهم بمثل اخلاقي اعلى (نوح نموذج للشعور بالمسؤولية اتجاه الحياة) (يوسف نموذج للصمود ازاء المغريات الجنسية والمادية) (ابراهيم الخليل نموذج للوعي) (موسى نموذج للصبر والمطاولة النضالية ازاء شكوك اتباعه) (عيسى نموذج للاستشهاد في سبيل المبدا) . واذا كانت قصص هؤلاء الانبياء تحوي مثلا اعلى فامام المؤمن نموذج حي معيش هو محمد بن عبدالله (ص) تجمعت فيه صفات اولئك الانبياء فهو نموذج لاخلاق الامة الأصيلة وهو النموذج الاكثر نضجا وكمالا والذي يجب على المؤمن الاقتداء به ، وكانواضحا ان ابراز قصص الانبياء يعني محاولة لتمكين الانسان من التمييز بين ما هو اصيل يرتبط بالامة وما هو دخيل يقره التخلف والانحلال والتجزئة .

تعزيز عملية بناء الشخصية الجديدة للانسان العربي :

تم تعزيز الاتجاهات الجديدة في الشخصية العربية عن طريق كشف اصالة الامة وارتباط قيمها الاصيلة بتاريخ الازدهار الحضاري ، التي برزها القرآن كثيرا ، اما قيم التخلف فهي ناتجة بفعل الاحتلال وغياب الثقافة القومية وقد تحقق هذا التعزيز بثلاث وسائل ، وفر القرآن الكريم الوسيلة الاولى منها ووفر الرسول القائد الثانية ، وقدم مشركوا مكة الثالثة .

ا - قدم القرآن الكريم وسيلة التعزيز الاساسية فيما تضمن من السور التي تحوى قصص الانبياء باعتبار الاحداث الخاصة بهم اشارات الى ماضي الامة اضافة الى ان كلا منهم يمثل مثلا اعلى يطلب الاقتداء به (٢) .

ب - شخصية الرسول (ص) وطريقته في التبشير بهذه القيم وممارستها على مرأى ومسمع من المسلمين ، وصموده ازاء اساليب قريش

---

(١) وردت في القرآن الكريم قصص الانبياء وبعض الاقوام القديمة في أكثر من ٢١ سورة من السور بالامكان الاطلاع عليها .

(٢) انظر ايضا القصص القرآنية لتلاحظ أن كل نبي ورد ذكره في القرآن ارتبط بمثل اعلى هو قيمة اجتماعية اكدها القرآن .

وبخاصة محولاتها لاغراءه بالمال والسلطة(١) ، وتحمله نتائج التعذيب، فقد تحول هذا الثبات الى معزز قوى للمسلمين ، ومصدرا لصمودهم لانه كشف لهم عن التصاق بالمبدأ وانقطاع عن الدنيا وعدم امكانية التعايش معها وصغرها ازاء عظمة العقيدة الجديدة .

جـ - عنف المشتركين في المجابهة وشدة تضييقهم على الرسول (ص) والمسلمين ، وتنوع أساليبهم فمن الانكار والسخرية والاستهزاء الى الاغراء والترغيب الى التهديد والقتل ، والطرد ، وهي أساليب خيبت ظنون قريش فقد ارادتها أساليب فتنة غير انها كانت معززات للصمود لانها اشرت فشل ما تدافع عنه قريش ، وهكذا أصبح مشركو قريش ضروريين لتحقيق الاسلام ضرورة المؤمنين له ، والذين حاربوا الرسول ساهموا في ظفر الاسلام كالذين ايدوه ونصروه(٢) . لقد نجحت هذه المدرسة النضالية في تخريج دفعات من الرجال العقائديين الاشداء الذين وصفوا بانهم (الموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون(٣))

غير ان بعض المسلمين الذين آمنوا ارتدوا وتراجعوا عن ايمانهم ازاء الضغط والارهاب والتعذيب الذي مارسه المشركون في مكة .

وكانت ميزة هذه الفترة ان ممارسة بناء الشخصية النضالية تمت في حدود الفرد ، فهي عملية بناء ذاتي يمارسها الانسان ضمن موجهات ومحكمات رئيسة يثبتها القرآن ويوضحها الرسول (ص) .

ثانيا - بناء القاعدة القائدة (مرحلة المدينة) :

اما في المدينة فقد اختلفت الصورة . فالمدينة اصبحت قاعدة الرسول (ص) التي يدير منها عملية التغيير ، ويتمتع فيها بقدر كبير من الحرية ويمسك

---

(١) سيرة بن هشام : ٢/٤٣ ، ٣٥

(٢) القائد المؤسس : ، سبيل البعث ، ١٢٦

(٣) البقـــرة : ١٧٧

بزمام الامور . وكان هذا تغييرا جوهريا يفرض بالضرورة متغيرات في صيغة بناء الشخصية النضبية للانسان العربي ، ويفرض على الشخصية الجديدة أن تنحوا منحى اخر مختلفا عن منحاها في مكة ، غير انه لا يقطع الصلة به ، فهذه الصيغة التي مورست ممارسة ذاتية في مكة ، ممارسة محكومة بموجهات ترد في القرآن الكريم ، ويوضحها الرسول (ص) اصبحت تمارس جماعية وباشراف الرسول (ص) وتوجيهه المباشر . واصبح اولئك الرجال الذين خرجتهم مكة نماذج تمارس بناء المجتمع ، وتقود التغيير وتعممة لقد ترتب عليها بالاضافة الى هذا الدور في هذه الحدود دور اخر هو التكيف مع الحركة الجماعية في البناء ومواصلة تنمية بناء الشخصية الفردية ضمن متطلبات تكوين مجتمع جديد ، وتوظيف تلك العملية في انجاح التغيير والوصول به الى هدفه المركزي . وهذا يستوجب ان يشارك المسلمون في عملية التغيير واستيعاب اتجاهاتها الاساسية ، ومن الممارسات الاولى في المدينة اتضحت سمات المجتمع الجديد .

سمات المجتمع الجديد :

تحددت سمات المجتمع الجديد بالسمات التالية :

اولا ـ مجتمع موحد : وفكرة الوحدة فيه ترتكز الى وحدة الانتماء الى العقيدة الجديدة التي هي رسالة الامة وشروط تكونها الجديد : « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » (١) وقد ورد التأكيد على الوحدة والتماسك في مواضع عدة من القرآن الكريم « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » (٢) . « ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » (٣) . « ولو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم

---

(١) الانبياء : ٩٢

(٢) ال عمران : ١٠٣

(٣) الانعام : ١٥٩

ولكن الله الف بينهم » (١) . « اقيموا الدين ولا تتفرقوا » (٢) . « انما المؤمنون اخوة » (٣) . واولوا الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » (٤) . وقد وصف المؤمنون بانهم امة (٥) ومفهوم الامة يعني الوحدة ، لذلك ليس عجبا ان نجد الرسول الكريم (ص) يؤكد هذه الوحدة في وثيقة المدينة « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، انهم أمة واحدة من دون الناس (٦) . ولقد كان الرسول (ص) حريصا كل الحرص على تحقيق الوحدة في نفوس المسلمين ، ومواصلة تعزيزها ثقافة وممارسة بشتى السبل ، وتأكيد النزعة الجماعية والتضامنية والتعاونية في كل المجالات ، « ان المؤمنين لا يتركون مفرحا منهم ان يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل » (٧) . وكانت ابرز أعماله (ص) في سبيل تحقيق الوحدة للجماعة المؤمنة في المدينة هي :

١ - بناء المسجد :

وفر بنا المسجد للمؤمنين مكانا يلتقون فيه برسول الله (ص) ويلتقون بعضهم ببعض ، يتشاورون في أمورهم ويتفقهون في دينهم ويعقدون العقود ويتخذون القرارات ، فالمسجد في ضوء هذه الوظائف هو مدرسة حياة جديدة ، القيم فيها جديدة والعلاقات جديدة والتوجيه فيها مركزي يمارسه الرسول الكريم (ص) ، وفيه يتاح للمسلمين على اختلاف قبائلهم ان يعيشوا

---

(١) الانفال : ٦٣
(٢) الشورى : ١٣
(٣) الحجرات : ١٠
(٤) الانفال : ٧٥
(٥) وردت كلمة «أمة» في خمسين اية ، ووردت «امتكم» في ايتين ، ووردت «امم» في ثلاث عشرة اية .
(٦) سيرة بن هشام : ٢٤١/٢
(٧) سيرة بن هشام : ٢٤١/٢ والمفرح المثقل بالدين كثير العيال اي غير القادر

معا متجاوزين ذلك الانتماء الضيق الى الانتماء العام « الامة » فهـو يبعد المسلمين عن المجتمع القديم ويعزلهم عنه وعن حياته وقيمها التي كانـت العرب تمارس التربية عليها في نوادي القبائل ، وحيث تعزز بقصص الجاهلية العصبية القبلية وتؤكد الروح المحافظة ، وقد أدرك أعداء الرسول خاصـة احبار اليهود هذا الهدف فلجأوا الى الدس وتذكير العرب بحروبهم الداخليـة لاثارة أحقادهم غير انهم لم يفلحوا(١) .

٢ ـ الممارسة اليومية :

والمقصود بها الممارسة الحياتية المرتبطة بنظم واحتياجات الجماعـة وابرز ما فيها :

أ ـ **المؤاخاة :** يقول ابن هشام ، اخي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اصحابه حين نزلوا المدينة ، ليذهب عنهم وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة ويشد ازر بعضهم ببعض (٢) ، فالمؤاخاة هنا عملية تكييف اجتماعي لاولئك الذين هاجروا من مكة تاركين اهلهم الى بيئة جديدة وتاكيد للتضامن الاجتماعي والتعاون وتعزيز للمودة وانكار للذات وتضحية بمظاهر الحياة الدنيا ، وهي كلها صفات تقرب بـين الناس وتشدهم لبعض ، ولم تقتصر المؤاخاة على المقاسمة في السكن والمال بل امتدت الى نواحي لحياة كافة (٣) .

ب ـ **العمل الجماعي :** ركز الرسول (ص) على ضرورة العمل بصورة عامة ، وهذا العمل عمل تعاوني وجماعي يشارك فيه الجميع القائد والقاعدة .

---

(١) سيرة بن هشام : ٢٧٦/٢

(٢) سيرة ابن هشام : ٢٥٢/٢

(٣) صحيح البخاري : ٣٩/٥ اخي رسول الله (ص) بين عبد الرحمن بـن عوف وسعد بن الربيع فقال لعبدالرحمن : اني اكثر الانصار مالا فاقسم مالي نصفين ولي امراتان فانظر اعجبهما اليك فسمها لي أطلقها فـاذا انقضت عدتها فتزوجها .

وقد تجلت هذه المفاهيم في اول عمل بداه المسلمون وهو بناء المسجد ، ويذكر ابن اسحق ان الرسول (ص) عمل فيه ليرغب المسلمين في العمل ، فعمل فيه المهاجرون والانصار ، وقد تباروا في تحقيق مستوى اعلى من الانجاز ، وكان العمل لديهم مقياسا اجتماعيا للمواطنة والايمان « لا يستوى من يعمر المساجد يداب فيها قائما وقاعدا ومن يرى عن الغبار حائدا » (١) . واستمرت تجربة العمل الجماعي فيما بعد سواء في اعمال تعود بالنفع لاحد المسلمين او لعمومهم كما حصل في حفر الخندق .

٣ ـ الكفاح ضد المشركين :

خاض الرسول (ص) معارك متعددة مع المشركين واهتم كثيرا بتنمية الروح الهجومية للمسلمين وركز على مبدأ الجهاد ، لانه يعني عمليا وضع المؤمن في حالة حمل دائم للمبادىء والتصاق شديد بالرسالة فيتيح له التكون وفقا لمتطلباتها .

ثانيا ـ **مجتمع متحرر :** قيم التحرر فيه مستمدة من المبادىء الاولى التي ارسيت في مكة وحددتها الايات القرآنية المكية ، مجتمع متحرر من قيم التخلف والتجزئة والفردية ، قيم الحياة الدنيا المجردة من الوعي بالكون بالماضي وبالمستقبل .

ثالثا ـ مجتمع عامل : العمل فيه اساسي في صنع الحياة الجديدة ، سواء كان عملا عسكريا كالمشاركة في الدفاع عن الدعوة ام العمل في النشاطات الخاصة بالدولة كالبناء والتعمير والزراعة ، وسمته انه لصالح الناس ، وهو واجب على كل مؤمن ذكر او انثى ، وان لهذا العمل وظائف عقائدية واجتماعية . فاما الوظيفة العقائدية فلانه بمقدار ما يعمل المؤمنون تنتصر العقيدة الجديدة والمؤمنون هنا ذكور واناث ومن هنا اتضحت الوظيفة الاجتماعية للعمل ، فالعمل على مستوى الفرد يقرر مدى صلاحية الفرد للمجتمع الجديد او

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٢٨/٢

عدمها فهو اذن أداة تغيير ذاتية ، فالانسان عندما يعمل يغير في مجال العمل ، ويغير في الوقت نفسه ذاته هو ، أما على مستوى الجماعة فهو يهيء لهـا مستلزمان حياتها اليومية . وهذا العمل عمل تعاوني وجماعي يشارك فيه الجميع القائد والقاعدة ، وهو مرتبط بالمستقبل اذا هو يضع التقدم .

رابعا ـ مجتمع مدني : يرتبط فيه التمدن ببناء المجتمع الجديد وانتصار الدعوة ، وقد حددت هذه السمة بتسمية يثرب (بالمدينة) و (مدينة الرسول) ، وقد هوجمت النزعة البدوية في الاسلام بعنف واعتبرت مما يتنافى مع الدين الجديد ويعيق ايمان الانسان ويسبب الخلل في البناء الاجتماعي .

« الاعراب أشد كفرا ونفاقا واجدر ألا يعلموا حدود ما انزل الله على رسوله والله عليم حكيم » (١) .

« ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم » (٢) . « وممن حولكم من اعراب منافقون ومن اهل المدينة مردوا على النفاق » (٣) قالت الاعراب امنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم(٤) وقد أكد المسلمون على التمدن حتى انهم اعتبروه مساويا للايمان ، بينما يتساوى الكفر والبداوة ، لذلك فقد حذروا من التبدي .

خامسا ـ مجتمع متعلم : والتعلم فيه ضروري لانه يقود الى التفتح الذهني والعقلي وبالتالي يقود الى التمدن ، ويعود على الانسان بالخير والنفع الذي هو الايمان السليم والمكانة المحترمة ويجعله مواطنا صالحا شريفا «ومن يؤتي الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا » (٥) وقد ركز الرسول (ص) على التعلم ، وكان الذين يعرفون القراءة والكتابة يجلسون في مسجد المدينة يعلمون

---

(١) التوبة : ٩٧
(٢) ن.م : ٩٨
(٣) ن.م : ١٠١
(٤) الحجرات : ١٤
(٥) البقرة : ٢٦٩

المسلمين وابناءهم القراءة والكتابة وقد افاد المسلمون من اسرى بدر ممن يعرفون القراءة والكتابة في تعليم ابنائهم ، فقد فرض الرسول(ص) على كل أسير منهم تعليم عشرة من ابناء المسلمين مقابل فك اسره (١) .

تعميم المجتمع الجديد :

اهتم الرسول (ص) كثيرا بتعميم المجتمع الجديد والانتقال بمفهوم الامة من حدود النموذج الى مرحلة احتواء الامة ، وأتاحت الهجرة الى المدينة لهظروفا من الحرية الواسعة ، لنشر مبادئه ، غير ان هذا لا يعني انه أصبح بعيدا عن الاخطار . فالمعركة مع الشرك قائمة ومستمرة والخطر الذي يهدده قائم في كل لحظة ولذلك انصبت جهوده في المدينة على بناء مجتمع العقيدة الجديدة كقوة نوعية متميزة ، وتحقيق خصائص العقيدة في شكل سلوك اجتماعي وممارسات جماهيرية لتحقيق ظروف افضل للصراع ، وتهيئة القوة الفعلية المباشرة المتعلقة بقدرات المسلمين الذاتية ، وامتلاك قوة الاقناع بالجديد الذي يدعو له وبصلاحيته وفضائله . وبالتالي تفوقه على المجتمع القديم ، ولقد حرص الرسول (ص) على أن يرى سمات المجتمع الجديد في شكل سلوك تسلكه الجماعة المؤمنة لكي يضمن هزيمة المجتمع القديم ، فالانتصار على القديم يتحقق عندما يبدأ المستقبل الجديد باتخاذ مكانة على الارض فيبدأ عملية ازاحة القديم ، اي عندما تمارسه الامة فعلا ، فالعقيدة تكتسب مبررها الوحيد عندما تستطيع ان توازن وتعادل القوى الواقعية الراهنة ، واكثر من ذلك ان تتفوق عليها وتنتصر ، لذلك ركز الرسول (ص) على تحقيق صورة المجتمع الذي يطمح لبنائه في سلوك المؤمنين ، لان تحقيق هذا المستقبل يشكل عامل قوة يفوق كل وسائل القوة (٢) .

اساليب التعميم :

مارس الرسول (ص) عملية تعميم المجتمع الجديد بأسلوبين احدهما يكمل الاخر :

---

(١) تاريخ الخميس : ٣٩٥/٢

(٢) القائد المؤسس : في سبيل البعث ، ص ١٨ .

الاول – فرض الهجرة الى المدينة :

فرض الرسول على كل يسلم في اي مكـــان كان وضمن اية ظروف ان يلتحق به في المدينة . فالمجتمع الذي يناضل لبناءه ليس خاصا بالمدينة ، انه المجتمع العربي عندما تتحقق الوحدة العربية ، لذلك فانه يريد للعرب مـن مختلف مناطق وطنهم ان يعيشوا التجربة الجديدة وان يتحمل كل منهـــم دوره في البناء الجديد وان يعيشوا المعاناة الجديدة .

اشترط على من يسلم الهجرة الى المدينة لان الهجرة اصبحت شـــرطا اساسيا للايمان « ان الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله ، والذين أووا ونصروا اولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين امنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا » (١) فكان (ص) اذا أمر اميرا على جيش أو سرية أوصاه « اذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى احدى ثلاث خصال ، فأيتهن اجابوك اليها فاقبل منهم وكف عنهم ادعهم الى الاسلام فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم الى التحول من دارهم الى دار المهاجرين واخبرهم انهم ان فعلوا فان لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فان أبوا ان يتحولوا فاخبرهم انهم يكونوا كأعراب المسلمين » (٢) . كانت دوافع الرسول (ص) في الالحاح على هجرة من يسلم متعددة غـــير أن اهمها يتعلق برغبته في أن يعيش المسلم في مجتمع المدينة ويتطبع به ، فهـــو مجتمع الامة الذي يناضل من اجله ، والاجدر أن يعيشه من الان ، فالمسلم عندما يهاجر تنقطع صلته بعشيرته انقطاعا اجتماعيا ، سياسيا وثقافيا وقانونيا واقتصاديا ، ومثل هذا الانفصال الضرفي ضروري للانفصال السلوكي ، بل انه هو الذي يتيح للمسلم أن يكون مؤمنا في جوهره وسلوكه العام ، اي يصبح عضوا في المجتمع الجديد . كذلك تعني ان المسلم لم ينفصل عن دين الجاهلية فقط انما عن الحياة الدنيا بكل مساوئها « المهاجر مـــن امتي من هجـــر

---

(١) الانفـــال : ٧٢-٧٥

(٢) الاموال : ٦٠ ، ٥٢٣ . صحيح مسلم : ٤٦/٢

السوء » (١) وانه مستعد لان يضحي ليس فقط بعلاقته بأهله وبعشيرته انما مستعد ان يضحي ايضا برغباته الخاصة وبما في الحياة الدنيا من زخرف ومظاهر مغرية ويرضى بعيشة النضال والكفاف والاستعداد للموت « يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا اباؤكم واخوانكم أولياء ان استحبوا الكفر على الايمان ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون ، قل ان كان اباؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم واموا اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي الفاسقين » (٢) ، وقد استحق المهاجرون رضا الله ورسوله (ص) « الذين امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم أعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون » (٣) ومع الترغيب كانت هناك اشارات الى الضرورة القصوى للهجرة والتحزير من الارتداد عليها « ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم » (٤) وقد حرص المسلمون على التمسك بهذا المبدأ ، لذلك نجد ابا ذر الغفارى بعدما ابعده الخليفة عثمان بن عفان الى الصحراء يختلف الى المدينة مخافة الاعرابية (٥) ومع أن الرسول اسقط الهجرة بعد تحرير مكة واوجب الجهاد بدلها (٦) . لا هجرة بعد الفتح انما هو جهاد ودين (٧) . الا انها بقيت مستحبة واتسع نطاقها لتشمل كل المدن التي اتخذها المسلمون مواطن لسكنهم والتي عرفت بالامصار . يروي محمد بن اياس بن سلمه بن الاكرع أن أباه حدثه ان سلمة بن الاكرع قدم المدينة فلقيه بريده بن الحصيب فقال : ارتددت ياسلمة

---

(١)
(٢) التوبة : ٢٣-٢٤
(٣) التوبة : ٢٠-٢٢ ، أيضا الانفال ق ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥
(٤) محمد : ٢٥
(٥) الطبرى : ٤/٢٨٤
(٦) الاموال : ٥٣٢ ، ٥٧٨
(٧) السرخسي ، الشرح الكبير : ٦٨/١

عن هجرتك ؟ فقال معاذ الله ، والله اني في اذن من رسول الله (١) وقال ابو ذر الغفاري عندما سيره الخليفة عثمان بن عفان الى الربذة : ردني عثمان بعد الهجرة اعرابيا (٢) .

الثانـــي ـ الجهـــاد :

لم يكن الجهاد الذى فرضه الرسول (ص) على المؤمنين عندما هاجر الى المدينة امرا جديدا على ستراتيجيته أو غير مالوف لدى المسلمين . فقد اعتمد كصيغة ستراتيجية بعد حادثة الاسراء والمعراج ، اذ مهما سيق من تفاصيل في تلك الحادثة فجوهرها هو مراجعة الرسول (ص) لمســــيرة الموحدين في التأريخ ، بدأ بنوح ووصولا الى عيسى (٣) . ومثل هذه المراجعة تعني عمليا مراجعة صيغ دعوتهم وتطورها في محاولة لاستكشاف الخلل والافادة منه في تدعيم الدعوة الجديدة ، خاصة وان الرسول(ص) خرج من المقاطعة الى ظروف سيئة اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، فقد توفى عمه وتوفيت زوجته وفقد بذلك مصدري القوة التي كان يرتكز اليها في نضاله في مكه ، كما ان اتباعــه ما بين مشرد في الحبشة ويثرب أو تحت الاقامة الجبرية في مكة او سجين في سجون اثرياءها .

وقد افاد الرسول (ص) من مراجعته هذه في التوصل الى أن التبشير بالصيغة التي تمارس في مكة غير نافع . وانه يجب ان يمارس العنف الثوري كوسيلة للتغيير ، من هنا جاء خروجه الى الطائف وتفكيره اللاحق بالاتصـال بالقبائل ثم الهجرة الى المدينة .

وباستثناء علاقته بالقبائل فكلا المركزين اللذين اختارهما ليهاجر اليهما من المراكز ذات السمات الاستراتيجية (الموقع المحصن ، والقوة البشرية ، الاقتصاد الجيد ، الموقع على طريق ستراتيجي ، وجود تناقضات اجتماعية) . وعندما نزلت الاية الكريمة (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة) أصبح الجهاد الصيغة

الامـوال : ٥٣٩
(٢) انساب الاشراف : ٥/٥٤
(٣) طبقات ابن سعد : ١٤٤/١/١

الفعلية لنشر الدعوة غير انه لم يكن صيغة قتالية انما كان صيغة نضالية ذات مفهوم عقائدي متكامل وشامل تربوي وعسكري وسياسي . وفيه عززت الشخصية النضالية للانسان العربي الجديد وفيه تم تعميم النموذج الجديد وبفضله حصل التطور السياسي للدعوة والدولة ، كان الجهاد عملية تواصل روح الثورة من اجل تحقيق المبادىء الستراتيجية بل هو زمن تحقق المستقبل . وكان يعني عمليا وضع المناضلين في حالة حمل دائم للمبادىء مما يتيح لهم الالتصاق بها والتفاعل معها والتكون وفقا لمستلزماتها .

وقد اهتم الرسول (ص) بالجهاد ، فهو اول رسول يحمل السيف تحقيقا للمبادىء ، وقاد بنفسه خمسا وعشرين حملة ، واسند الى اصحابه قيادة خمس وثلاثين حملة ، وكانت جميعها موجهة الى قريش والى الاطراف الشمالية للجزيرة العربية ضد خيبر والروم ، ولم تكن نظرته الى تلك المعارك نظرة عسكرية مجردة ، بل كانت نظرة متعددة الغايات والمرامي ، وواحدة منها بالتأكيد هي تربية المسلمين تربية قتالية هجومية ، وزج المسلمين الجدد في مواقف صدامية مع المشركين ، مواقف امتحانية « ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » (١) وقد ذكر الجهاد في القرآن ثلاثا وعشرين مرة(٢) وفي ثمان منها كانت الكلمة مرتبطة بالإيمان والهجرة (٣) . وكان من الاهمية بحيث اعتبر كافيا لمسامحة المسلم الذي يؤمن متاخرا او اولئك الذين تراجعوا عن دينهم تحت ضغط وتعذيب المشركين ، فالجهاد هنا مقياس نضالي يستوى فيه كل المؤمنين حتى «اولئك الذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فاولئك منكم » (٤) « ثم ان ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا ان ربك من بعدها لغفور

---

(١) ال عمران : ١٤٢

(٢) المعجم المفهرس : مادة جهد ، ص ١٨٣

(٣) ن٠م :

(٤) الانفال : ٧٥

رحيم » (١) وقد استمرت عملية تعزيز هذه الممارسات في القرآن الكريم ومن قبل الرسول (ص) أيضا وكانت كلما نضجت عملية البناء تعمم الى نطـــاق أوسع .

(١) النحل : ١١٠ .

الباب الثاني

التاريخ السياسي لحركة التغيير العربي

الفصل الأول

- التطور السياسي لحركة التغيير « مكة »
- الاتصال بالعرب خارج مكة

البداية : وفقا لاراء الفقهاء لم يكن نزول الوحي على محمد بن عبدالله (ص) ليعني اكثر من ان الله اختاره نبيا ، وفي تقديرهم ان فترة النبوة استمرت من نزول الوحي بسورة « العلق » الى نزول سورة « المدثر » ، فلما نزلت وبها أمر الله بالدعوة اصبح النبي رسول الى البشر(١) ، وليس واضحا ما اذا كان هذا الرأي يعني ان الرسول (ص) لم يباشر الدعوة عند نزول الوحي أم انه باشرها ، غير ان الروايات التاريخية تقرن بين نزول الوحي للمرة الاولى وبين ايمان المؤمنين الاوائل : خديجة وابو بكر وزيد وعلي (٢) .

ابتدأ الرسول القائد دعوته في مكة بقوله مخاطبا أهل مكة : ياايها الناس قولوا لا اله الا الله تفلحوا ، تملكوا بها العرب وتذل لكم العجم(٣) وكان هذا الشعار بالاضافة الى انه يعبر عن التصور الستراتيجي للرسول القائد « التوحيد ، الوحدة ، التحرير » فهو أيضا محاولة لايقاظ الحماس القومي بين العرب ونقلهم من حدود المجتمع القبلي الى التفكير بقضية اكبر تنسجم وطبيعة الفكر العربي ، قضية تجعل الانسان العربي تحت ضغط التساؤلات المتعددة عن قضايا جوهرية تفرض عليه ان يرتبط بالزمن وبالحركة التاريخية، ارتباط يتجاوز به ذاته ويعرف معنى ان يكون منتميا الى كيان أكبر من مجرد قريش أو مكة . أو أية قبيلة . وعندما عرف أهل مكة ان محمدا انما يكلم من السماء وانه صاحب دعوة لها مبادؤها امن به أقرب الناس اليه واصدقاؤه ، غير ان الوحي انقطع بعد نزوله لاول مرة ولم يعاود النزول الا بعد سنتين ويقال سنتين ونصف .

---

(١) السهيلي : ٢٨٤/١

(٢) سيرة بن هشام : ٢٨٠/١

(٣) طبقات بن سعد : ١٤٥/١/١

ويصور الفقهاء من خلال تفسيرهم لسورة « الضحى » مقدار القلق النفسي الذي انتاب الرسول (ص) بسبب انقطاع الوحي حتى كاد يتردى من رؤوس شواهق الجبال (١) ». ومع ان سورة (العلق) لاتحوي من مبادىء التوحيد أو المبادىء الاجتماعية الا ايمان برب واحد فاننا نجد عددا من أهل مكة يؤمن بالرسول (ص) والراجح ان ايمانهم هذا كان ايمانا بالمبدأ العام للتوحيد (الايمان بالرب الواحد) مضافا له المعنى الاجتماعي والسياسي للتوحيد الديني كما يفترض ان يكون الرسول (ص) وضحه لهم من خلال شعاره آنف الذكر . ان استعراض السور المكية ، يكشف الطابع العام لها ، طابع القصص التأريخية التي تضمنت عرضا لحقب مضت من التأريخ العربي اقترنت بانبياء ظهروا في اجيال عربية وكانت لكل منهم رسالة هي في جوهرها انضاج للتوحيد ، وبما ان جوهر التوحيد قد استقر على مبادىء اساسية واقر قيما اجتماعية واخلاقية محددة ، نستطيع الافتراض ، ومن خلال تحليل شخصيات هؤلاء الانبياء ، ان ايراد قصصهم كان يهدف إلى تحقيق هدف اساسي وهو : التوعية بالذات القومية ، ونقل العربي من اعتبار قبيلته محور حركته ، وأفق تطلعاته إلى الأمة ، ومن اعتقاده ان حياته في اطار قبيلته وظرفيها الزماني والمكاني هي كل شيء إلى التفكير بحقبة زمنية قد لا تكون قبيلته من ضمن الجيل الذي عاشها ، وبهذا يتحقق :

١ — الفصل بين قيم الأمة الاصيلة التي يمثلها هؤلاء الانبياء وبين القيم الفردية والسلبية التي نتجت عن مرحلة التخلف والشرك .

٢ — تعزيز بناء شخصية المؤمن وايمانه باصالة الأمة وسمتها « التوحيد» وصموده ازاء محاولات التشكيك التي يجابهه بها المشركون ، طالما ان اولئك الانبياء يمثل كل منهم قيمة اجتماعية وخلقية ، أي جعلهم مثلا عليا يقتدى بها المؤمنون .

٣ — تعزيز ثقة المؤمن بانتصار عقيدته عن طريق كشف مراحل تأريخية شهدت انتصار مراحل اولية في نضج عقيدته .

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢٨١/١ . ابن سيد الناس : ١ /٨٥ .

أكد القرآن الكريم على فائدة هذه السور القصصية « نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ». « في قصصهم عبرة لاولى الالباب » (١) .

المؤمنـون الأوائـــل :

ركزت السور المكية على ابرز قضيتين اساسيتين استخلمهما الرسول على أساس انهما تشكلان ابرز خلل في حياة مكة خاصة والعرب عامة وتمثلان تناقضا جوهريا يعاني منه المجتمع ، هما النزعة المحافظة السائدة في مكة ، وقضية المستضعفين والعبيد ، تجلى موقف الاسلام من النزعة المحافظة في مهاجمة اباء المشركين ودعواهم بأنهم انما يتبعون اباءهم ويعبدون ما عبدوا(٢) وكان الهجوم يتضمن التوعية بخطأ المعتقدات الدينية التي ورثوها عن اباءهم أولا (٣) وبضرورة الانفصال عما عبد الاباء واباحوا لانفسهم ثانيا (٤) ، وقد هاجم الرسول (ص) الملأ وكان يذكرهم بالذم والسخرية وكانوا موضع هجومه المستمر (٥)، لأنهم كانوا يمارسون كلا مظهري الخلل « المحافظة والظلم » ، اضافة إلى ما يتبعها من ممارسات اجتماعية واقتصادية .

وقد تركز الهجوم ايضا على الذين يظلمون المستضعفين والعبيد بالهجوم على الظلم والاستبعاد واحتكار الثروات.

ونستطيع تمييز دورين من أدوار الدعوة في مكة :

١ ــ دور المبادىء العامــة :

استفزت مبادىء التوحيد والمبادىء الأجتماعية في الدعوة أهل مكة واثارت بينهم نوعين من التناقضات :

---

(١) هود : ١٢٠ ، يوسف : ١١١ .
(٢) المعجم المفهرس : ٣ – ٤ هوجمت النزعة المحافظة على دين الاباء في (٥٠) اية معظمها مكية.
(٣) الاعراف : ١٧١ (اتجادلونني في اسماء سميتموها انتم واباؤكم) .
(٤) التوبة : ٢٣ – ٢٢ .
(٥) تاريخ الطبري : ٣٤٨/٢ ، ٤٥٩ .

الاول : بين الشباب والشيوخ من اهل مكة .

الثاني : بين المستضعفين والعبيد من جهة وبين مجتمع الاثرياء والسادة من جهة ثانية وقد أدت هذه التناقضات الى أن يكون انصار الرسول (ص) الاوائل من اهل مكة من الشباب وضعفاء الناس بقول ابن سعد : استجاب من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس(١) والراجح ان هذا الدور من الدعوة لم يستفز مشركي مكة كثيرا فاكتفوا بالاستهزاء منه بقولهم : « غلام بني عبدالمطلب يكلم من السماء » (٢) ، لذلك استغل الرسول هذا الدور في بناء خلايا المؤمنين الاول .

ازداد عداء أهل مكة مع وضوح مبادىء الدين الجديد وازدياد انصاره ووضوح الاخطار التي تهدد مصالحهم والظاهر ان الرسول في مرحلة متاخرة من هذا الدور انتقل الى الهجوم على ديانة الاباء فسب الهتهم ، لذلك لجاوا الى عمه ابي طالب « ان ابن اخيك قد سب الهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا وضلل ابائنا فاما ان تكفه عنا واما ان تخلي بيننا وبينه » كما مارسوا اثارة الرأي العام المكي خاصة والعربي عامة ضده متهمينه بانه « يفرق بين المرء وابيه وبين المرء وخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته » (٣) . حاولت قريش في البداية ترغيب الرسول (ص) واغراءه فعرضت له الثروة والسلطة، الا انها جوبهت بموقف ارادي صلب تمثل فيه الانفصال التام عن تلك المرحلة من حياة المجتمع والانقطاع الى المبدأ ، بحيث لم يعد في تلك الحياة ما يغري ؛ وكان جواب الرسول (ص) واضحا ومعبرا « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله او اهلك فيه

---

(١) طبقات بن سعد : ١٣٣/١/١

(٢) ن٠م

(٣) سيرة ابن هشام : ٤/٢ ، ١٢ طبقات بن سعد : ١٣٤/١/١ ، تاريخ الطبري : ٣٢٢/٢

ما تركته » (١) . ولما يئسوا لجاوا الى الاحراج الاجتماعي « فانك قد علمت انه ليس من الناس احد اضيق بلدا ، ولا اقل ماء ولا اشد عيشا منا فسل لنا ربك الذي بعثك علينا وليبسط لنا بلادنا وليفجر لنا فيها انهارا كانهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضي من ابنائنا » « اذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك وسل ربك ان يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول .. » وهو امر يكشف عن رغبتهم في جره من القضية الجوهرية الى تفاصيل الحياة اليومية لاضعاف موقفه العقائدي واحراجه اجتماعيا ، وكان جواب الرسول (ص) « ما بعثت اليكم بهذ ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا » (٢) اي انه اصر على النظرة الشمولية لعقيدته ، ولا يبدو ان هذا افادهم في شيء لذلك انطلقوا في حملة هستيرية اتهموه بالسحر (٣) والشعر (٤) والجنون (٥) والكذب (٦) . وقالوا انما تروي اساطير الاولين(٧) انه قد بلغنا انك انما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن وانا والله لا نؤمن بالرحمن ابدا (٨) .

لقد دافع الله عن رسوله « قال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه واعانه عليه قوم اخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا اساطير الاولين اكتتبها

---

(١) سيرة ابن هشام : ٣٥/٢ ، تاريخ الطبرى : ٣٣٧/٢

(٢) سيرة ابن هشام : ٣٧/٢

(٣) الانعام : ٧ ، يونس : ٧٦ ، هو : ٧ ، النحل ، ١٣ ، سبأ : ٤٣ ، الصافات : ١٥ ، الزخرف : ٣٠ ، الانفال : ٧ ، الطور : ١٥ ، القمر : ٢ الصف : ٦ ، المدثر : ٢٤ ، ص ٤ ، الذاريات : ٥٢ ، الاسراء : ٤٧ ، الفرقان : ٨ .

(٤) الصافات : ٣٦ ، الحاقة : ٤٠ ، الانبياء : ٥ ، الطور : ٣٠ .

(٥) الحجر : ٦ ، الصافات : ٣٦ ، القلم : ٥١ ، المؤمنون : ٢٥ .

(٦) ص : ٤ ، القمر : ٢٥ ، فاطر : ٢٥ ، الحج : ٤٢

(٧) الانعام : ٢٥ ، النحل : ٢٤ ، المؤمنون : ٨٣ ، النحل : ٦٨ ، الانفال ١٧: القلم : ١٥ ، المطففين : ١٣

(٨) سيرة ابن هشام : ٣٧/٢

فهو تملى عليه بكرة واصيلا » (١) « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه اعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » (٢) .

٢ ـ دور التعرض :

وهو دور اعقب هجوم قريش العنيف على الرسول (ص) وقد تميز هذا الدور بهجوم الرسول في اتجاهين :

الاول : هجوم على الهة الشرك (٣) ووصفها بانها مخلوقة من الانسان ، غير قادرة على خلق ، وليست لها علاقة بحياة البشر اليومية ، وليس هناك دلائل على قدرتها ، لاتنفع ولا تدفع الضرر عن نفسها .

الثاني : هجوم على المشركين انفسهم ، ولم تقتصر الايات على تسفيه آلهة الشرك بل هاجمت المشركين انفسهم ووصفتهم بأوصاف شديدة ، لقد اطلق عليهم المشركون والكافرون والضالون والمجرمون والفاسقون والاثمون وغيرها من اوصاف الذم، ووصف مصيرهم في النار وعذابهم فيها بأوصاف مريعة . ولم يقتصر الهجوم على المشركين كفئة انما سمى

---

(١) الطوفان : ٤ ـ ٥ .

(٢) النحل : ١٠٣ .

(٣) هوجمت الهة الشرك في سور متعددة منها :

الاعراف : ٢٩١ ـ ١٩٧	النحل : ٢٠ ـ ٢١ ـ ٧٢
فمرة : ١٣ ، ٤٠	الاحقاف : ٤ ـ ٥
الفرقان : ٣ ـ ١٨ ـ ٥٧	لقمان : ١١
الحج : ٢٣ ـ ٧١ ـ ٧٣	يس : ٧٤ ـ ٧٥
الرعد : ١٤ ـ ١٦	الانعام : ٧١
الزمر : ٣٨، ٤٣	الاسراء : ٥٦
يونس : ١٨ ـ ٦٦	سبأ : ٢٢
الزخرف : ٨٦	غافر : ٢٠
العنكبوت : ٤١	القصص : ٦٤

بعضهم « تبت يدا ابي لهب وتب » (١) واكتفى بالاشارة إلى احداث ارتبطت بالبعض الاخر كالوليد بن المغيرة المخزومي (٢) وامية بن خلف (٣) وغيرهم .

وعموماً يظهر ان ابرز المعارضين للرسول (ص) هم :

الأسود بن المطلب الاسدي ابو زمعه

الأسود بن عبد يغوث الزهرى

الوليد بن المغيرة المخزومي

العاص بن وائل السهمي

الحارث بن الطلاطمة الخزاعي .

الصمود :

عند هذا الحد من تطور الدعوة استنفرت قريش كل امكاناتها وفي رواية عروة بن الزبير « لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه، لم يبعدوا منه اول ما دعاهم وكادوا يسمعون له . حتى ذكر طواغيتهم وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال انكروا ذلك عليه واشتدوا عليه وكرهوا ما قال لهم . واغروا به من اطاعهم فانفض عنه عامة الناس .. ثم ائمرت رؤوسهم بان يفتنوا من تبعه عن دين الله من ابنائهم واخوانهم وقبائلهم فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الاسلام » (٥) ويصف ابن اسحق ذلك بقوله: « ذكر الهتهم وعابها فلما فعل ذلك عظموه وناكروه واجمعوا خلافه وعداوته » (٦) فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم بحق دينهم(٧) وقد اشتدأذى قريش للمسلمين

---

(١) المسند : ١

(٢) سيرة ابن هشام : ١١/٢

(٣) ن . م: ١٠٤

(٤) الكلاعي : ج ٣٨٨/١

(٥) تاريخ الطبرى : ٢٢٨/٢

(٦) سيرة ابن هشام : ٣/٢ ، طبقات ابن سعد : ١٧٣/١/١ رواية الزهرى .

(٧) ن. م /٩/٢، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٦ .

لذلك امرهم الرسول بالهجرة الى الحبشة فهاجروا في رجب من السنة الخامسة (١) بينما استمر هو ومن بقي معه في مكة يدعون الى الدين الجديد ويتحملون اذى قريش ويحصلون على حماية بني عبدالمطلب وبني هاشم بفضل المكانة التي يتمتع بها عمه ابو طالب وحماية عشيرة زوجته . والظاهر انه في هذه الفترة اعتكف في داره وقليلا ماكان يلتقي بانصاره الذين بقوا في مكة ، وكان ابرز الذين يؤذونه في داره ابو لهب والحكم بن ابي العاص بن امية وعقبة بن ابي معيط وعدى بن حمراء الثقفي وابن الاصداء الهذلي وكانوا جيرانه (٢) .

يفهم من رواية عروة ان جوهر الخلاف لم يكن شتمه الهتهم ، انما تعرضه لمصالحهم ، فالهجمة الشرسة للمشركين ، اقترنت بتحفز ناس من قريش ، لهم أموال كانوا يستثمرونها في الطائف . وهنا يبدأ دور الطبقة المالكة في معاداة التغيير ، فالراجح ان هذه الفترة شهدت تشديدا في الهجوم على الاحتكار والظلم ، وكشفت عن المبادىء الاجتماعية في الدعوة .

استمر الصراع الحاد بين المسلمين والمشركين بعد الهجرة الى الحبشة ، وكانت نتائجه ايجابية ، فقد اسلم عمر بن الخطاب واصبح للمسلمين رصيد قوى باسلام حمزة وعمر وبدأ الاسلام ينتشر بين ابناء القبائل من خارج قريش ممن كان في مكة ، ورأت قريش الخطر على ابوابها فقررت مقاطعة بني هاشم وبني المطلب وتضمنت المقاطعة بنودا في منع التزواج والبيع والشراء (٣)

بدات المقاطعة في المحرم سنة سبع من البعثة واستمرت ثلاث سنوات (٤) غير انها فشلت فقد كان لهم من يمدهم سرا امثال حكيم بن حزام ابن اخ خديجة زوجة الرسول (ص) وابن البختري .

---

(١) طبقات بن سعد : ١٣٦/١/١ ، تاريخ الطبرى : ٣٢٨/٢ ، ٣٣٠

(٢) الكلاعي : ٣٨٩/١

(٣) طبقات بن سعد : ١٣٩/١/١

(٤) ن.م : ١٤٠ ، تاريخ الطبرى : ٣٣٦/٢و.

كما ان بني هاشم وبني المطلب كانوا يخرجون للتجارة في المواسم ..ثم قام بعض رجالات قريش من عامر بن لؤي ومخزوم نوفل بن عبد مناف وعبد العزي بتمزيق الصحيفة وانهاء المقاطعة (١) ، ولا يبدو ان عملهم واجه مقاومة واسعة اذ لم تذكر الاخبار سوى معارضة ابي جهل ، غير ان المرحلة التي اعقبت المقاطعة كانت عصيبة فقد توفيت خديجة ثم توفي ابو طالب بعد المقاطعة بامد قصير وكانت وفاتهما خسارة كبيرة للرسول (ص) ، اذ فقد الزوجة الوفية الشجاعة وفقد دعم عشيرتها ، كما انه فقد العم الذي جمع بني هاشم على حمايته ، والظاهر ان مراكز القوة المتعددة التي هيأها وجود خديجة وابي طالب انتهت بوفاتهما فلزم بيته وقل خروجه ونالت منه قريش ، ومع انه حظي بحماية ابي لهب الا ان تلك الحماية لم تطل اذ سرعان ما شارك ابو لهب قريشا في تطاولها على الرسول (ص) وفي هذه الفترة تفرغ المسلمون الاول للدعوة وكان أبو بكر وسعيد بن زيد وعثمان بن عفان يدعون سرا ، بينما كان عمر وحمزة بن عبد المطلب وابو عبيدة يدعون علانية (٢) .

الحل الجديد :

توصل الرسول (ص) الى ان مكة لم تعد البيئة الصالحة لاستمرار جهوده وان استمراره فيها يعني تناقص القوة النضالية التي بناها ، فرغم التناقضات التي كان يعيشها مجتمع مكة ، الا ان هذه التناقضات لم تكن كافية لاسقاطه كما ان وجود الرسول (ص) فيها لم يعد وجودا أمينا بعد ان فقد مصادر القوة التي كان يحتمي بها ، فخرج من مكة الى الطائف محاولا اتخاذها

---

(١) طبقات بن سعد : ١٤١/١/١ وهم :

١ ـ مطعم بن عدى
٢ ـ عدى بن قيس
٣ ـ زمعة بن الاسود
٤ ـ ابو البخترى بن هاشم
٥ ـ زهير بن أبي امية

(٢) طبقات بن سعد : ٣٣/١/١

قاعدة له لما فيها من مزايا ستراتيجية محاولا استغلالها واستغلال حالة التبعية لاثرياء قريش . حيث يعيش المستضعفون أوضاعا اسوأ من اوضاع امثالهم في مكة . كذلك عبيدها لانها بيئة زراعية وصناعية ، كما يفترض في أغنياء الطائف تشجيع دعوته لما تمثله من فائدة لهم بتحريرهم من التبعية لأغنياء مكة ، غير انه جوبه بمعارضة شديدة وقاسية وصلفة اثرت فيه كثيرا ، وقد شكلت هذه الظروف بالنسبة للرسول (ص) ازمة لم تكن سهلة ، عبر عنها بقوله « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس » (١) بل ان الرسول (ص) اعتبر موقف اهل الطائف أشد وقعا من يوم احد ، ومع ان الروايات لا تشير إلى أنه ساح في الجزيرة (٢) . غير اننا لا نعرف الكثير عن ذلك . والذي نعرفه ان الرسول عاد إلى مكة وارسل إلى مطعم بن عدى يسأله ان كان يقبل ان يدخل مكة في جواره فأجابه إلى ذلك (٣).

عندما عاد الرسول (ص) إلى مكة في جوار مطعم بن عدى حددت حركته ولم يعد قادرا على الاتصال بالمسلمين ، لذلك اخذ ابو بكر يتردد عليه ينقل توجيهاته إلى المسلمين . والراجح انه انصرف في هذه الاثناء إلى مراجعة اوضاع الدعوة في مكة والنتائج التي انتهت اليها في الطائف او مع القبائل ، وفي هذه الاثناء حدثت قصة الاسراء والمعراج بما تمثله من مراجعة لمسيرة التوحيد في التأريخ العربي . واستخلص منها الحل الجديد في أن نشر المباديء يحتاج إلى العنف وانه يجب أن يقاتل في سبيل مبادئه . واغلب الظن انه انصرف إلى تعبئة المسلمين على الصيغة الجديدة ، وفي ذات الوقت نضجت الدعوة إلى التغيير في يثرب ، واصبح نجاح المسلمين فيها يبشر بامتلاك المسلمين القاعدة التي يمارسون منها الجهاد لتحقيق مبادئهم ، وبين الاسراء والمعراج وهجرة المسلمين إلى يثرب تغيرت روحية المسلمين في مكة . واصبحوا هم الذين يتحدون بل يظهرون من التحدى اقصى ما يمكن ، وفي خروج عمر ابن الخطاب والحمزة بن عبدالمطلب تعبير عن الروحية الجديدة التي أصبح المسلمون يتمتعون بها .

---

(١) ا[illegible] : ٣٩٦/١ .

(٢) ن . م : ٣٩٧/١ .

(٣) طبقات ابن سعد : ١٤٢/١/١ ، تاريخ الطبري : ٣٤٨/٢ .

الاتصال بالعرب خارج مكة :

تبقى معلوماتنا عن الدعوة في مكة بعد الهجرة إلى الحبشة غامضة ، ولا تفيد في رسم تصور دقيق لتطور جهود الرسول (ص) في نشر الدعوة ، أو لموقف اتباعه ممن بقي في مكة ولم يهاجر ، كذلك لانستطيع تحديد موقف مشركي مكة بدقة ايضا ، ولكن يبدو ان شدة الهجمة التي شنها المشركون فرضت على الرسول (ص) وانصاره الانكفاء وعدم القدرة على ممارسة أي نشاط لذلك صورت لنا الروايات التاريخية بداية اتصال الرسول (ص) بالعرب خارج مكة في شكل اتصال بالقبائل في موسم التجارة في عكاظ ومجنة وذي المجاز (١) ويرد ذكر العديد من القبائل التي اتصل بها الرسول (ص) مثل عامر بن صعصعة ومحارب بن خصفة ، وفزاره،وغسان ، ومره ، وحنيفة ، وسليم،وعبس ، وبني نصر ، وبني البكاء ، وكنده ، وكلب ، والحارث بن كعب ، وعذره ، والحضارمة ، غير ان احدا منهم لم يستجب له (٢) والملاحظ على هذه القبائل انها من مختلف انحاء العرب ، واكثر التفاصيل عن طبيعة اتصال الرسول (ص) بالعرب وردت في خبر اتصاله ببني عامر بن صعصعة ويظهر من حواره معهم انه طلب منهم ان يؤووه وان يمنعوه . ويقوموا معه في أمره (٣) وهي مطالب ترتبط بنشر مبادئه كما يراها وكما يفهمها ، وكان جواب بني صعصعة يعبر عن فهمهم لهذه المبادىء الذي لا يتجاوز حدود التحالفات السياسية حيث قالوا له : أرايت ان نحن بايعناك على أمرك ثم اظهرك الله على من خالفك : ايكون لنا الامر من بعدك قال : الأمر لله يضعه حيث شاء قال : فقالوا له : افنهدف نحورنا للعرب دونك فاذا اظهرك الله كان الأمر لغيرنا لا حاجة لنا بأمرك (٤) .

(١) طبقات ابن سعد : ١٤٥/١/١ ، تأريخ الطبرى ١٥١/٢ ، الكلاعي ٤٠٢/١.
(٢) طبقات ابن سعد : ١٤٥/١/١ ، تأريخ الطبرى ٣٤٩/٢و.
(٣) ن. م. الكلاعي : ٤٠٠/١ .
(٤) تاريخ الطبرى : ٣٥٠/٢ .

اتصال الرسول (ص) باهل يثرب :

تأتي الاشارة الى اتصال الرسول (ص) بأهل يثرب في هذا السياق غير أن واقع الاحداث لا يتفق مع هذا الترتيب الذي أجراه المؤرخون ، واذا كان الرسول (ص) قد وسع نشاطه في الاتصال بالقبائل بعد رجوعه من الطائف ، فامر يثرب أمر اخر مختلف تماما ويبدأ في وقت مبكر من الدعوة .

ترد أول اشارة الى احتكاك اهل يثرب بالدعوة مقترنة بأحد المسلمين الاول ، ابي سملة بن عبدالاسد المخزومي اخي الرسول (ص) بالرضاعة ممن هاجر الى الحبشة في الهجرة الاولى سنة ٨ ق.هـ فلما سمع ان الرسول (ص) صالح قريشا عاد بعد ثلاثة اشهر غير انه اكتشف عدم صحة الانباء فارسل الى الرسول (ص) يخبره بعودته ، فطلب اليه ان يذهب الى حيث يشاء فذهب الى يثرب ، ونزل عند بني عمر بن عوف في قباء (١) وقد لحق بأبي سلمة مسلم اخر هو عامر بن ربيعة ، والراجح انهما عملا على نشر الاسلام بين اهل يثرب ، فقد اشار الطبرى الى انتشار الاسلام في يثرب اثر عودة بعض المهاجرين من الحبشة(٢)

وترد الاشارة الثانية مقرونة بسويد بن الصامت احد بني عمرو بن عوف الذي قدم مكة فدعاه الرسول (ص) الى الاسلام فقال سويد : فلعل الذي معك مثل الذي معي ، فقال له رسول الله)ص(وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان (حكمة لقمان) ، فقال الرسول (ص) اعرضها علي ، فعرضها عليه فقال : ان هذا الكلام حسن ، معي افضل من هذا ، قرآن انزله الله علي ، هدى ونور قال : فتلا عليه رسول الله (ص) القرآن ودعاه الى الاسلام فلم يبعد منه وقال : ان هذا لقول حسن . ثم انصرف غير انه قتل بعد عودته الى المدينة في حرب الاوس والخزرج يوم بعاث سنة ٧ ق.هـ (٣) .

---

(١) سيرة بن هشام ٢١١/٢ ، طبقات بن سعد : ٦٧/١/١ ، تأريخ الطبرى : ٢١٢/٢

(٢) ٣٦٦/٢

(٣) تأريخ الطبرى : ٣٥٢

ان هذه الرواية تعطي انطباعا عن يثرب انها كانت بيئة عرفت مستوى من النضج في الوعي الديني ، وان سويد ممن يهتم بالامور العقلية والفلسفية ، وله اطلاع على قصص بعض الاقوام القديمة ومصلحيها . ولعل لهذا الوعي الذي عند سويد علاقة بوجود أبي سلمة في بني عمر بن عوف ، ولكن الرواية لا تذكر ان سويد قد اسلم ولو ان اشارتها الى مقتله في يوم بعاث قد يفهم منها انه اسلم غير انه لم يفعل شيئا بسبب قتله .

ويذكر ابن سعد ان اول من اسلم من اهل يثرب اسعد بن زراره وذكوان بن عبد قيس ، وكانا قد خرجا الى مكة يتنافران الى عتبة بن ربيعة ، فقال لهما قد شغلنا هذا المصلي عن كل شيء يزعم انه رسول الله . فاسلما ويشار الى اسعد وابي الهيثم بن التيهان انهما كانا يتكلمان بالتوحيد قبل ذلك في يثرب ، حتى ان ذكوان قال لاسعد : « دونك هذا دينك » (١) وتشير بعض الروايات الى ان ذكوان اسلم ورحل الى رسول الله (ص) واقام معه في مكة ثم عاد الى يثرب في وقت نجهله ، غير انه جاء مع الوفد في بيعة العقبة الاولى سنة ١ ق.هـ ، واحتمال عودته قبل هذا التاريخ الى يثرب واردة وانه عمل ايضا على نشر الاسلام فيها(٢) .

وفي رواية اخرى يرد ذكر رافع بن مالك الزرقي ، ومعاذ بن عفراء من الخزرج خرجا الى مكة معتمرين فذكر لهما امر الرسول (ص) فاتياه واسلما (٣) . وفي رواية أخرى يذكر ابن سعد ان الرسول (ص) اتصل بثمانية من أهل يثرب منهم ستة من الخزرج واثنان من الاوس هم :

١ ـ معاذ بن عفراء

٢ ـ اسعد بن زراره

٣ ـ رافع بن مالك الزرقي

---

(١) طبقات بن سعد ١٤٦/١/١

(٢) سيرة بن هشام : ١٤٨/٢ ، ٢٠٨

(٣) طبقات بن سعد ١٤٦/١/١

٤ - ذكوان بن عبد قيس الزرقي

٥ - عبادة بن الصامت

٦ - يزيد بن ثعلبه

٧ - ابو الهيثم بن التهيان

وان الرسول (ص) عرض عليهم الاسلام فاسلموا فطلب اليهم ان يمنعوه حتى يبلغ رسالته فقالوا له : « يا رسول الله نحن مجتهدون لله ولرسولـــه نحن فاعلم اعداء متباغضون وانما كانت وقعة بعاث عام الاول يوم من ايامنـــا اقتتلنا فيه فان تقدم ونحن كذا لا يكون لنا عليك اجتماع فدعنا حتى نرجع الى عشائرنا لعل الله يصلح ذات بيننا وموعدك الموسم العام المقبل » (١) غير ان ابن سعد يذكر رواية اخرى لابن اسحق عن وفد من ستة من اهل يثرب لقيهم الرسول (ص) فقال لهم : احلفاء يهود ؟ قالوا نعم ، فقرا عليهم القرآن ودعاهم الى الاسلام فاسلموا ، ويضيف انهم تشاوروا فيما بينهم وقالوا : انه النبي الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم اليه . فاسلموا ولما رجعوا الى يثرب نشروا الدعوة(٢) ويحدد الطبرى تاريخ هذا الوفد في سنة ٣ ق.هـ اذ اعتبر حضوره الى مكة قبل بيعة العقبة الاولى بسنة . بعد هذه الاتصالات تصبـــح الدعوة امام مرحلة متقدمة من النضج ففي سنة ٢ق.هـ يصل مكة وفد من اثنى عشر مسلما من يثرب بينهم اثنان من الاوس ولاول مرة ، فيقابلون الرسول (ص) ويبايعونه البيعة التي عرفت ببيعة العقبة الاولى . ثم ان الرسول (ص) ارسل معهم مصعب بن عمير احد المسلمين الاول لكي يعلمهم الاحكام وقراءة القرآن فنزل عند اسعد بن زراره ، والظاهر ان هذه المرحلة شهدت اتساع نطاق انتشار العقيدة الجديدة ، وربما يعود الفضل الى قابليات الشاب مصعب

---

(١) طبقات بن سعد : ١٤٦/١/١

(٢) ن.م : ايضا ص ١٤٧ ، سيرة بن هشام : ١٧٦/٢ ، تاريـــخ الطبرى : ٣٥٣/٢ ، ٣٥٤ .

بن عمير التنظيمية والفكرية ، وقد كتب مصعب الى الرسول (ص) ياذن له ان يجمع المؤمنين فاذن له فكان يجمعهم في دار سعد بن خيثمة(١)

واستمر انتشار الدعوة في اتساع ، والراجح انه لم تبق قرية في يثرب الا وفيها مسلمون ، بل ان قرى الخزرج قد تم احتواءها جميعا ، لذلك في السنة الاخيرة ق.هـ يفد الى مكة ثلاث وسبعون رجلا وامراتان ، فيهم احد عشر من الاوس والبقية من الخزرج ، وفيهم اثنا عشر نقيبا ليس بينهم من الوفد الاول سوى ثلاثة ويقال اربعة فبايعوا الرسول (ص) (٢) .

لماذا اسلم اهل يثرب :

كان اهل يثرب من الاوس والخزرج يعرفون قبل ذلك ببني قيلة من الازد من اليمن انفصلوا عن القبيلة الام (الازد) عند خروجها من اليمن بعد حادثة السد واستقروا هناك . ومع اهل يثرب من العرب يسكن اليهود ، والراجح انهم قبائل متعددة ابرزها ثلاث قبائل هم « بنو قينقاع ـ بنو قريظة ـ بنو النضير » وفي وقت ما من تاريخ يثرب كان اليهود مسيطرين على تقاليد الامور فيها ، قد يكون عهد تلك السيطرة لاحقا لحادث طردهم من قبل البيزنطيين من بلاد الشام ، غير انهم في القرن السابع كانوا قد فقدوا السيطرة على المدينة، ولم تعد تجمع قبائلهم اية رابطة تكتل ، على العكس نجدهم متفرقين في السكن ومفككين سياسيا واجتماعيا ، فكانوا محالفين لقبائل يثرب العربية لتأمين حياتهم وامنهم ، وكانوا يشتغلون بالزراعة ، وتجارة الذهب وصياغته ، والتجارة ، ومما لا شك فيه ان لهم علاقه بيهود خيبر ، وكان احبار اليهود يشكلون طبقة تزاول السلطة الدينية والسياسية والاقتصادية كل في قبيلته ، ورغم علاقات تحالفهم الا ان الانغلاق كان الطابع العام لحياتهم من حيث الاستقرار والعلاقة والنشاط الاقتصادي وعدم التعامل مع المجتمع الا بالقدر

---

(١) سيرة بن هشام ١/١٨٤ ، طبقات بن سعد ١/١/١٤٧ وتاريخ الطبرى : ٢/٣٥٧ ، تاريخ الخميس ١/٣١٩ ، ٣٢٠

(٢) سيرة بن هشام : ٢/١٨٨ ، تاريخ الطبري : ٢/٣٦١ ، ٣٦٢ ، يذكر عددهم (٧٢) .

الذي يسمح باستمرارهم واستمرار مصالحهم وكانوا مرابين يعملون بالصيرفة وفي سنة ٧ ق.هـ كانت بين الاوس والخزرج الحرب التي عرفت بيوم بعاث ، ويشار الى دور اليهود في اذكاء الفرقة وتأجيج الحرب ، غير ان هذا لا يكفي للجزم بأنهم كانوا الاقوى في مجتمع يثرب ، قد يكون دورهم نابعا من سياسة الانغلاق التي يهمها بقاء الاوضاع حولها قلقة غير مستقرة وقد يكون محاولة العودة الى السيطرة على يثرب .

في الروايات التي استعرضناها عن اسلام اهل يثرب اتجاه عام اساسه ان الخزرج هم أول من اسلم واسبق من دارت حوله الروايات في الدخول في الدين الجديد ، بل ان بعض الروايات ذكرت اتصال الرسول (ص) ببعض الاوس أثناء قدومهم مكة يتحالفون مع قريش ضد الخروج فرفضوا الايمان به (١) ولم يرد ذكرهم الا في وفد العقبة الاولى حيث ذكر منهم ثلاثة وقيل اثنان(٢) ومثل هذا الاتجاه قد يكون صحيحا وقد يكون بتأثير الإتجاهات القبلية وسحبها التاريخ الى الوراء .

اما في اسباب اسلام اهل يثرب عموما فهناك اتجاهان :

الاتجاه الإول :

يصور اسلام اهل يثرب لاسباب دينية تتعلق بوعيهم المتقدم ، وبالتالي فدوافع الاستجابة الى الدعوة دوافع عقائدية قوامها الاستعداد الذهني والروحي اي انهم وجدوا في الاسلام ما ينسجم مع طبيعة تفكيرهم واتجاهاتهم الفكرية ، فاسعد بن زراره وابو الهيثم بن التيهان كانا ممن يتكلم بالتوحيد بيثرب(٣) ، وسويد بن الصامت كان يقرا مجلة لقمان(٤) وابو قيس صرمه بن ابي انس اخو بني عدى بن النجاركان على الحنيفية ، كذلك ابو عامر عبد

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٥٢/٢و.

(٢) سيرة بن هشام ١٨٨/٢ ، طبقات بن سعد : ١٤٧/١/١ .

(٣) طبقات بن سعد : ١٤٦/١/١

(٤) تاريخ الطبرى : ٣٥٢/٢

عمرو بن صيفي من الاوس (١) وهذه الروايات تعطي انطباعا عن شيوع معتقدات التوحيد في يثرب مما جعلهم مهيئين لقبول الاسلام .

الاتجاه الثاني :

يصور دوافع اسلام اهل يثرب بانها سياسية ومنطلقها خوف اهل يثرب من استعادة اليهود السيطرة على يثرب خاصة وان يهود يثرب كانوا يهددون اهلها من العرب بان نبيا سيظهر وان اليهود سيتبعونه ويقتلون به العرب (٢) .

وهناك اشارة الى منطلق اخر للدافع السياسي هو ملل اهل يثرب من الفرقة واملهم في ان تتحقق لهم الوحدة بايمانهم بالرسول (ص) واتباعهم له (٣)

ان مسألة تقرير اي من الاتجاهين كان السبب في اسلام اهل يثرب مسألة غير ممكنة ، السؤال في الواقع يجب ان يكون عن اي الاتجاهين كان الاقوى في دفع اهل يثرب الى الاسلام ؟ هل كان النضج العقلي والفكرى عند اهل يثرب قويا الى الحد الذى يدفعهم الى الاسلام وبتاثير اي العقائد كان هذا النضج ؟ نحن نعرف ان اهل يثرب من اليمن واهل اليمن كانوا يعرفون التوحيد قبل الاسلام بزمن ، ولكن ما مقدار نشاط هذه الافكار واتساعها اجتماعيا ثم هل يصح ان يكون الدافع السياسي قويا الى هذا الحد ؟ صحيح ان اليهود كانوا يشجعون اي خلل في الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، وقد يكونون فعلا حاولوا تخريب علاقات الاوس بالخزرج ، وانهم لعبوا دورا غير سليم في يوم بعاث . وصحيح ان الرغبة في الوحدة قد تكون قادت الى الايمان بالدين الجديد ، خاصة وأن الوحدة القائمة على التحالفات السياسية

---

(١) الكلاعى : ٤٨٦ ، ٤٨٢و.

(٢) سيرة بن هشام : ١٧٦/٢ رواية ابن اسحق

(٣) ن.م . احمد زيني دحلان ، السيرة الحلبية ٧/٢ قالوا له : « عسى الله ان يجمعهم عليك فان اجتمعت كلمتهم عليك واتبعوك فلا احد اعز منك » ابن سيد الناس : ١٥٦/١

، الاتفاقيات فشلت ولم تكن اقوى من القبلية ، والوحدة كشكل من أشكال السيادة الاجتماعية تحتاج الى عوامل اقناع وتعزيز عقائدية ولكن هل كان النضج السياسي في شكل وضوح للاسس المشتركة من الاستعداد العقائدي لدى قبائل يثرب وانه كان فعالا وقويا وواضح الاهداف بحيث يكفي ليدفع الى الاستجابة للعقائد الدينية وهي استجابة تحتاج الى استعداد ذهني ونفسي وفكــري ويدفعهم في الوقت ذاته الى طلب الوحدة ولو على يد رجل من خارج القبيلة .

أن مثل هذه التساؤلات تحول ولا شك دون امكانية تقرير ما اذا كانت أسباب ايمان اهل يثرب عقائدية ام سياسية ، انما هي مزيج من الاثنين وقد تكون مزيجا من عوامل أخرى .

يفهم من شرح السهيلي لبيعه النساء وجود خلل في العلاقات الاجتماعية للأوس والخزرج في حدود الاسرة أو العلاقة بين الرجل والمرأة (١) وابرز مظاهر هــذا الخلل .

١ ــ أن النساء اعتدن ان ينسبن الى أزواجهن اولاداً ليسوا منهم .

٢ ــ شيوع عادة الاستمتاع بالمرأة فيما دون الوطء .

٣ ــ اخذ النساء اموال رجالهن ومحاباة غيرهم بها .

٤ ــ قتل الاولاد أو تحديد النسل بمنع الحمل .

فهل معنى هذا أن مجتمع يثرب كان يعاني من خلل في نظام « الزواج » وهل يمكن أن يتسبب هذا الخلل في ازمة اجتماعية تقود الى البحث عــن الخلاص في عقيدة جديدة .

ابن هشام ذكر في موضع آخر أن الناس تزيد بموسها الا الانصار فانهم على هيأتهم لا تزيد نفوسهم (٢) والظاهر أن موت الاطفال ناجم عن بيئة غير

---

(١) الممتحنة : « المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن اولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين ايديهن وارجلهن ولا يعصينك في معروف .
سيرة بن هشام : ١٨٥/٢ ، السهيلي : ١٩٥/٢ .

(٢) سيرة بن هشام : ٢٥٧/٤ صحيح البخاري : ٤٣/٥ .

سحية ، وقد يكون ناجما عن تحديد النسل ولن النص على ان المراة من اهل لمدينة كانت تنذر اذا ولدت وعاش ولدها أن تهوده (١) ، يعني ان الوفاة حصل بعد الولادة وأن اليهود استخدموا ثقافتهم لاستغلال هذه الناحية عن طريق الادعاء بقدرتهم على الحيلولة دون موت الاطفال .

فهل لهذه الظاهرة علاقة بذلك الخلل الاجتماعي ، واذا كانت كذلك لم يقدم الاسلام لها علاجا .

ان شكل اقبال أهل يثرب على الاسلام يثير الاستغراب ، فقد انتشر بينهم بشكل سريع حتى قال المؤرخون : لم يبق دار من دور أهل يثرب الا وفيها رجال ونساء مسلمون (٢) ، باستثناء بني اوس الله من الاوس ، فقد كان فيهم صيفي ابو قيس بن الاسلت شاعرا وقائدا يطيعون له ، ويذكر الكلاعي أنه كان على الحنيفيه واختلف مع الرسول (ص) ، فترك يثرب لمساعدتها الرسول (ص) والتحق بمكة (٣) وهو موقف غريب اذ لم يرد ذكر لتناقض الرسول (ص) مع الحنيفية في مكة فلماذا يتناقض معها في يثرب .

---

(١) السهيلي : ٢٨٩/٢ .

(٢) ن٠م : ١٨٧/٢ .

(٣) الكلاعي : ٤١٨/١ ، ٤٨٢ انظر الذهبي : التاريخ الكبير جـ ١/ق ٨٤/١ يذكر رواية مغايرة في التفاصيل متفقة في النتيجة

الفصل الثاني

التطور السياسي لحركة التغيير في المدينة

- الهجـرة الى يثـرب
- القوى الاجتماعية والسياسية في المدينة
- اعمال الرسول الاولى (بناء القاعدة القائدة)
  ١ - تثبيت كيان المسلمين
  ٢ - اعلان وثيقة المدينـة

الهجـرة الى يثـرب :

عندما حضر وفد الاثني عشر يثربيا في سنة ٢ ق.هـ والتقوا بالرسول (ص) بايعوه البيعة التي عرفت ببيعة النسـاء ، فأوفد معهم مصعب بن عمير لينضم الدعوة وليعلمهم القرآن (١) . والظاهر أن امكانيات مصعب التنظيمية كانت كبيرة وانه ركز في الدعوة على الرجال الذين كان يعتقد بأهميتهم لاعتبارات تخص مكانتهم في قومهم ، اذ يشار الى اسلام سعد بن معاذ واسيد بن حضير على يده (٢) ، فبلغت الدعوة بجهوده مستوىمن النضج والسيطرة علىالاوضاع في يثرب ، وربما يكون ارساله لغرض التأكد ان المسلمين يشكلون قوة حاسمة في يثرب ، ولكي يرسى أسس قيادتهم لها ويؤمن هجرة مسلمي مكة ايضا . وتذكر الروايات ان مصعب طلب الى الرسول (ص) ان يأذن له بجمع المسلمين، فسمح له بجمعهم يوم جمعة ، فكانت اول جمعة في الاسلام ، وقيل ان سعد بن زراره اول من جمعهم ، وفي اجتماعه ذلك كان عدد مسلمي المدينة اربعين رجلا . غير أن تفسير الرواية بهذا الشكل يثير عدة مسائل مهمة فالمسلمون في المدينة لا زالوا لم يبسطوا نفوذهم ، وليس لديهم مسجد ، اضافة الى ان الصلاة لازالت في بدايتها كفرض ديني فالامر بها جاء في الاسراء والمعراج ، ولم تكتسب كممارسة بعد صيغتها التنظيمية المعروفة الآن ، ولم تتخذها الا بعد هجرة الرسول (ص)الى يثرب بزمن . الراجح ان عملية الجمعة المشار اليها كانت اجتماعا لقيادات الدعوة في المدينة بعد اتساعها على يد مصعب ، فكانت قيادات التنظيم واسعة بلغ عددها (٧٥) منهم امرأتان مثلهم اثنا عشر نقيباليس بينهم الا ثلاث من نقباء الوفد الاول الذى عرف بوفد العقبة الاولى وقد يكون

---

(١) سيرة بن هشام : ١٨٥/٢ وعرف مصعب بالمقرىء لهذا السبب وهو أول من سمى بالمقرىء . انظر ص / ١٩٥ ايضا .

(٢) ن.م : ١٨٦ .

هذا التغيير نابعا من تدفق مصعب في نشاطات قيادات الدعوة في فترة تنظيمة للمدينة (١) .

ويعتبر عدد المسلمين الذين حضروا بيعة العقبة الثانية سنة ١ ق.هـ دليلا على نجاح الدعوة وبلوغها درجة مطمئنة من السيطرة فقد كان عددهم ٧٣ بينهم ٦٠ من الخزرج و ١١ من الاوس وامراتان ام عمارة نسيبة بنت كعب ، وام منيع أسماء بنت عمره . فلما التقوا بالرسول (ص) بايعوه البيعة التي عرفت ببيعة العقبة الثانية وكانت شروطها أن يمنعوا الرسول (ص) ويحاربوا في سبيله الاحمر والاسود وان لا يسلموه ابدا (٢) . فلما اطمأن الرسول (ص) بدأت هجرة مسلمي مكة ، فهاجر بلال وسعد بن ابي وقاص وعمار بن ياسر ثم عمر بن الخطاب في عشرين من اصحاب الرسول (ص) ونزل عمر في قباء ومعه عياش بن ابي ربيعة ولا نعرف اذا كان جميع الذين هاجروا معه نزلوا في قباء أم لا (٣) . وهاجر طلحة بن عبيد الله وصهيب بن شيبان ونزلا عند خبيب بن اساف بالسنح (٤) ، ثم هاجر الرسول (ص) وابو بكر في ١٢ ربيع الثاني فنزل الرسول (ص) في المربد عند ابي إيوب ونزل ابو بكر في السنح (٥) . اما بقية المسلمين فلم تصل الينا معلومات عن هجرتهم واماكن نزولهم ويشار الى سعد بن خيثمة أحد الانصار سمي داره بدار العزاب لانه كان عزبا وكان منزله منزل المهاجرين العزاب (٦) .

ان طريقة هجرة المسلمين من مكة وتوزعهم على احياء يثرب تشير الى صيغة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٩٤/٢ يذكر ان أول جمعة لفرض الصلاة كانت بعد الهجرة والذى صلى فيها بالمسلمين هو الرسول (ص) .

(٢) سيرة بن هشام : ١١٦٩/٢ ، ١٩١ .

(٣) صحيح البخارى : ٨٤/٥ ، الكلاعي : ٤٣٥ .

(٤) الكلاعي : ٤٣٧ .

(٥) ن.م : ٤٥٩ .

(٦) ن.م :

من التنظيم الدقيق للدعوة في يثرب بموجبها رتب استقرار المسلمين فيهـا بحيث يصبحون القوة الاساسية ويمتلكون زمام الامور .

القوى الاجتماعية والسياسية في المدينة(١) :

وصف سكان المدينة قبل الاسلام بانهم خليط فهي لم تكن قبيلة الملكية خالصة انما تقاسمت ملكيتها قوى اجتماعية متعددة كان ابرزها الاوس والخزرج واليهود ومجموعة من القبائل الصغيرة ومن هذا الخليط تكونت قوى سياسية متعددة ايضا لكل منها مصالحه الخاصة . وعندما هاجر الرسول (ص) والمسلمون الى المدينة اصبح توزيع القوى سياسيا بالدرجة الاولى ، ثم اجتماعيا فكان هنـا :

١ ـ المسلمون من المهاجرين والانصار .
٢ ـ المشركون من بقايا الاوس والخزرج والقبائل الاخرى .
٣ ـ اليهـود .
٤ ـ المنافقـون .

شكل المنافقون واليهود ابرز قوتين سياسيتين وجدتا الى جانب المسلمين والارجح أن الرسول (ص) اتجه اولا الى تنظيم المسلمين وتثبيت كيانهم ثم عاهد اليهود بالوثيقة التي عرفت بصحيفة الموادعة التي يصح اعتبارها أول وثيقة دستورية نظمت العلاقات في المدينة(٢)

---

(١) المدينة واحة تقع على الطريق الغربي الذي يصل بين الشـام واليمن وتتوفر فيها المياه وتنبسط فيها الارض وتنحدر اليها الوديان من الجبال المحيطة بها وهي لهذه الظروف اصبحت منطقة زراعية تنتشر فيهـا البساتين والمزارع ، وافاد اهل يثرب من الموقع قرب الطريق التجارى غير انه لم ترد الاشارة الى أن التجارة شكلت نشاطا رئيسا للسكان ، رغم أنها كانت تقع بين خيبر شمالا ومكة جنوبا وهما من مراكز التجارة النشطة آنذاك . أما المنطقة المحيطة بيثرب فهي منطقة مناجم وابرزها مناجم ذهب بني سليم .

(٢) يلاحظ على كتاب السيرة عدم اتفاقهم على تحديد أسبقية الاعمال فذكر ابن هشام الموادعة أولا ، فيما ذكر الكلاعي المؤاخاة .

المنافقـــــون :

لا تتوفر لنا معلومات واضحة حول المنافقين ولا عن طبيعة هذا التجمع الذى لعب دورا في أحداث المدينة واورد بن هشام قائمة بأسماء المنافقين حسب قبائلهم وذكر الاحداث التي اقترنت بهم وذكر أن رئيسهم الذى يجتمعون اليه هو عبد الله بن ابي سلول واشار الى علاقة قومه ببني النضير ومساعدتهم لهم عندما حاصرهم الرسول (ص) (١) ، وان عملهم كان الزراعة وانهـم كانوا اغنياء ايضـــا .

ولم يقتصر المنافقون على الاوس والخزرج انما يذكر ابن اسحق معهـم من احبار اليهود من بني قينقاع ويصفهم ابن اسحق بانهم تعوذوا بالاســـلام ودخلوا فيه مع المسلمين واظهروه (٢) وباستثناء هذا لا نعرف عنهم شيئا ، فقد كان بعضهم يشارك في معارك المسلمين لا عن ايمان انما بحمية قبلية (٣) فكانوا في احد وفي خيبر (٤) ويشار الى موقفهم في المدينة بأنهم كانوا يحضرون المسجد فيستمعون احاديث المسلمين ويسخرون ويستهزئون بدينهم وقـــد نزلت فيهم آيات متعددة والظاهر انهم في أحد الايام دبروا شيئا في المسجد فامر الرسول (ص) باخراجهم وقد استخدم العنف في ذلك ، ويظهر ان المنافقين بنو مسجد الضرار الذى أمر الرسول (ص) بهدمه (٥) .

والغريب ما ذكره الكلاعي عن ابي عامر وكان على الحنيفية فلما راى دخـــول قومه في الاسلام جاء الى الرسول (ص) وقال له : ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال : جئت بالحنيفية دين ابراهيم ، قال: فانا عليها ، فقال له رسول الله (ص) انك لست عليها . قال : انك ادخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منهـا . قال : ما فعلت ولكني جئت بها بيضاء نقية فخرج مفارقا الرسول (ص) مع

---

(١) سيرة بن هشام : ٢٥٨/٢ – ٢٦١ .

(٢) سيرة بن هشام . ٢٦١/٢ .

(٣) ن.م : ٢٦٠/٢ حادثة مزمان في معركة أحد .

(٤) ن.م : ١٦١/٢ .

(٥) ن.م : ايضا الذهبي : التاريخ الكبير ، جـ ٨١/١/١ .

بضعة عشر رجلا(١) . وكان للمنافقين موقف معادي اكثر عندما كتب ابن ابي سلول الى خيبر يعلمهم بمسير المسلمين وحجم قوتهم(٢) ».

اليهـــود :

عندما هاجر الرسول (ص) الى المدينة لم يكن اليهود يشكلون قوة موحدة ولم يتم العتامل معهم على هذا الاساس اصلا وفي الوثيقة ذكروا حلفاء لبطون الاوس والخزرج غير ان مجرد ذكرهم في الوثيقـــة يعني ان الرسول (ص) اعطاهم مكانة متميزة في مجتمع يثرب لانه اعتبرهم اصحاب كتاب ومن مبادىء الاسلام الخمس الرئيسة الايمان بالكتب المنزلة غـــير ان هـــذا لا يعني ان الرسول (ص) قد توصل الى صيغة نهائية تنظم العلاقة مع اليهود .

كان لليهود في يثرب نشاط اقتصادي متنوع فقد عملوا بالزراعـــة والتجارة واشتغل بعضهم صاغة وكانوا يتعاملون بالذهب ويقرضون بالربـا ويرد ذكر احبار اليهود باعتبارهم رؤساء اليهود واصحاب الثروة فيهم ، غير انهم كانوا يتعاملون مع المجتمع تعاملا حذرا وكانوا منغلقين على انفسهم كجماعة ذات مصالح وسط مجتمع لا يمتون اليه بصلة وقد لعب الاحبار دورا فـــي تضليل اليهود وتعزيز انغلاقهم ولعل قولهم للاوس والخزرج « نبيا مبعوث الان .. نتبعه فنقتلكم له (٣) اشارة الى عدم وجود ما يربطهم بمجتمـــع يثرب كذلك يشار الى موقفهم السلبي من اهـــل يثرب واستخدام تحالفاتهم معهم لغرض اذكاء الفتنة واشاعة الخلاف بين اهلها .

اعمال الرسول (ص) الاولى في يثرب (بناء القاعدة القائدة)

اولا ـ تثبيت كيان المسلمين :

يقول ابن اسحق : « فلما اطمان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة واجتمع امر الانصار استحكم امر الاسلام فقامت الصـــلاة وفرضت الزكاة

---

(١) الكلاعي : ٨٢/١و٤٠
(٢) تأريخ الخميس : ٤٣/٢ ، ٤٤
(٣) سيرة بن هشام : ٩٧٦/٢

والصيام وقامت الحدود وفرض الحلال والحرام(١) » أي بدات عملية بناء المجتمع الجديد ، بناء القاعدة النموذج التي ستأخذ على عاتقها قيادة عملية التغيير فى حياة الامة العربية والعالم .

ترتب على انتقال الرسول (ص) الى يثرب ان حدثت متغيرات جديدة في الظرفين الزماني والمكاني فعلى العكس من مكة كان المسلمون في يثرب هم القوة الاساسية الفاعلة ويثرب قاعدتهم وبيدهم قيادتها ، يتمتعون بقدر كبير من الحرية ويمسكون بزمام الامور وكان على القوى الاخرى ان تكيف وضعها وفقا للوضع الجديد ، وهذه المتغيرات فرضت على عملية بناء الاداة التي مورست في مكة ان تنحو منحى اخر يرتبط مع الخط العام الذي ارسي في مكة غير انه يتميز عليه في افاقه الجديدة ، فالاداة التي ركز الرسول (ص) على بناءها في مكة والتي قوامها « الانسان النموذج » اصبحت في يثرب «المجتمع النموذج» واصبح على النماذج التي تم تكوينها في مكة ان تتكيف مع شروط بناء الجماعة وان تقود عملية البناء الجديد في آن واحد .

وقد هيأ الرسول (ص) كل الظروف التي من شأنها انجاح عملية التكيف ، وهيأ المناخ العام لنضج عملية البناء الجديد وهي بمجملها صورة الامة كما يحددها القرآن وكما يفهمها الرسول (ص) بكل قيمها القومية والدينية والاجتماعية ، فالى جانب الاعمال التي سيزج بها المسلمون ، لم يترك الرسول (ص) مفصلا من مفاصل الحياة اليومية الا واعطى فيه رأيا .

لقد زاوج الرسول (ص) بين هدفه لبناء المجتمع النموذج وبين ضرورات تنظيم اوضاع المسلمين خاصة والمدينة بشكل عام بحيث يضمن السيطرة على الوضع وتوجيهه وفقا لاهدافه الستراتيجية عندما اعاد تخطيط المدينة مجددا بحيث تتحول خريطتها السكانية والاقتصادية الى عامل امن خاص وقد اتضح ذلك في صيغة توزيعه المسلمين على دارات المدينة واستحداث مركز جديد للمدينة حيث بنى المسجد وداره وحدد مقر القوة المسؤولة عن أن المدينة

---

(١) سيرة بن هشام : ٢٠٣/٢

«دار المزاب» ، وقد تنبه المؤرخون الى قيمة اعادة تخطيط المدينة عندما اشاروا الى ان اعماله الاولى بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والانصار واطلاق اسم المدينة على يثرب قد ضمنت تنظيم شؤون المجتمع الجديد في المدينة وبرزتهم بين قواها الاجتماعية والسياسية قوة اجتماعية وسياسية جديدة في طبيعة تكوينها باعتبارها كيان من افراد تتعدد انتماءاتهم القبلية ينتمون الى كيان عام هو ليس بقبيلة كما اعتاد العرب ، جديدة في جوهر تكوينها تجمعها عقيدة ليست بعصبية القبيلة ولا رابطة النسب ، لها اهدافها الستراتيجية ولها قيمها ومثلها التي ليست كقيم القبيلة ومثلها .

ثانيا ـ اعلان وثيقة المدينة :

وهي الوثيقة التي نظمت الاوضاع الاجتماعية والسياسية لطرفي المدينة الرئيسيين المسلمين واليهود .

((نص وثيقة المدينة(١)))

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم امة واحدة من دون الناس ، المهاجرين من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين : وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين : وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم

---

(١) سيرة بن هشام : ٢/٢٤١-٢٤٢

الاولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وبنو الاوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الاولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وان المؤمنين لايتركون مفرحا بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء او عقل . وان لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وان المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، او ابتغى وسيعة ظلم ، او اثم ، او فساد بين المؤمنين ، وان ايديهم عليه جميعا ، ولو كان ولد احدهم ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وان ذمة الله واحدة يجير عليهم ادناهم ، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وانه من تبعنا من يهود فان له النصر والاسوة ، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وان سلم المؤمنين واحدة ، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله ، الا على سواء وعدل بينهم وان كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضا ، وان المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله ، وان المؤمنين المتقين على احسن هدى واقومه ، وانه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن ، وانه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به الا ان يرضى ولي المقتول ، وان المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم الاقيام عليه ، وانه لا يحل لمؤمن اقر بما في هذه الصحيفة وامن بالله واليوم الاخر ، ان ينصر محدثا ولا يؤويه ، وانه من نصره او اواه ، فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وانكم مهما اختلفتم فيه من شيء ، فان مرده الى الله عز وجل ، والى محمد صلى الله عليه وسلم ، وان اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وانفسهم ، الا من ظلم واثم ، فانه لا يوتغ الا نفسه ، واهل بيته ، وان ليهود بني النجار مثل ماليهود بني عوف ، وان ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف ، وان ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف ، وان ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف ، وان ليهود

بني الاوس مثل ما ليهود بني عوف ، وان ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف ، الا من ظلم ، فانه لا يوتغ الا نفسه واهل بيته ، وان جفنة بطن من ثعلبة كانفسهم ، وان لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف ، وان البر دون الاثم ، وان موالى ثعلبه كانفسهم ، وان بطانة يهود كانفسهم ، وانه لا يخرج منهم احد الا باذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وانه لا ينحجز على ثار جرح ، وانه من فتك فبنفسه فتك ، اهل بيته ، الا من ظلم ، وان الله على ابر هذا وان على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وان بينهم النصر على من حارب اهل هذه الصحيفة ، وان بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الاثم ، وانه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وان النصر للمظلوم ، وان اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وان يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا اثم ، وانه لا تجار حرمة الا باذن اهلها ، وانه ما كان بين اهل هذه الصحيفة من حدث او اشتجار يخاف فساده ، فان مرده الى اله عز وجل ، والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان الله على من اتقى مافي هذه الصفيحة وابره ، وانه لا تجار قريش ولا من نصرها ، وان بينهم النصر على من دهم يثرب ، واذا دعوا الى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فانهم يصالحونه ويلبسونه ، وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين ، الا من حارب في الدين ، على كل اناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وان يهود الاوس ، مواليهم وانفسهم ، على مثل ما لاهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من اهل هذه الصحيفة .

دراسة وثيقة المدينة :

ان تشريع الرسول لوثيقة المدينة في بداية انتقاله لها يعني عمليا انه أراد ان يضع للمدينة دستورا ينظمها ويحدد شكل العلاقات الاجتماعية (اقتصاديا وسياسيا وثقافيا) ويعطى قانونية لوضع المسلمين في المدينة يؤكد شخصيتهم وقيادتهم للمدينة ويحدد موقع الاطراف الاخرى في مجتمع المدينة من بعضها وموقعها خلف قيادة المسلمين للمدينة . ووفقا لمحتوى الوثيقة

فانها نظمت العلاقة بين المؤمنين والمسلمين الذين شكلوا « امة واحدة من دون الناس » وبين اليهود الذين هم مع هذه الامة امة عامة الرابط بينهم «التوحيد» اما المشركون واهالي المدينة ممن لم يسلموا ولم يكونوا يهودا فانهم لم يذكروا لان الرسول اعتبرهم القاعدة الاجتماعية للامة القائدة والذي يسعى لاحتوائهم مستقبلا . وقد ترك لهم الباب مفتوحا للدخول في الامة . ثم تأكيد قيسادة الرسول للمدينة بحصر كافة الشؤون العامة للمدينة بيد الرسول وقياسس موقع اي جماعة منها في ضوء التزامها بالمبادىء التي تحدد السياسة العامة المدينة ويمكننا ان نلاحظ في وثيقة المدينة ما يلي :

١ ـ مبادىء تخص المسلمين :

أ ـ انهم امة واحدة من دون اهل المدينة .

ب ـ انهم يصرفون حياتهم اليومية وفقا لما اعتادوا عليه وبما لا يناقض العقيدة الجديدة .

جـ ـ انهم كيان متعاون يضمن بعضهم بعضا .

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه .

المؤمنون كلهم على من بغى منهم

لا يقتل مؤمن بكافر

لا ينصر كافر على مؤمن

د ـ مواقف المؤمنين واحدة سلما او حربا .

٢ ـ مبادىء تحدد العلاقة العامة لقوى المدينة .

أ ـ اعتبار المدينة حرما لاهل الصحيفة .

ب ـ لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن .

ت ـ لا يحل لمؤمن اقربما في الصحيفة وامن بالله واليوم الاخر ان ان ينصر محدثا او يؤويه .

ث ـ الرجوع الى حكم الله ورسوله فيما يختلف فيه .

هـ ـ يلزم اليهود بالاتفاق مع المؤمنين في الحرب .

ج - اليهود امة مع المؤمنين ، غير انهم ليسوا من المؤمنين كما يراهم القرآن ، ويدعو له الرسول .

خ - لليهود دينهم ومواليهم وانفسهم طالما هم ملتزمون بمبادىء الصحيفة .

د - لا يخرج احدهم الا باذن الرسول (ص) .

ذ - يلتزم اليهود والمسلمون بالمشاركة في محاربة من يحارب اهل الصحيفة .

ر - لا تجار قريش ولا من نصرها .

تعكس المبادىء التي في الوثيقة اهداف الرسول (ص) فيها وهي :

١ - المحافظة على المؤمنين كيانا متميزا قائدا للمدينة يقوم على أساس الانتماء الى العقيدة الجديدة مفتوحا لمن يشاء دخوله شرط الالتزام بعقيدته « ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم انهم امة واحدة من دون الناس »

٢ - ضمان السيطرة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية على المدينة

٣ - عزل قريش وقطع الصلات معها

٤ - المحافظة على استقرار النظام والامن في المدينة . ومثل هذه المبادىء ضرورية اذا اعتبرنا الهدف الاني للرسول (ص) هو بناء المدينة نموذجا للهدف الستراتيجي الذي يسعى لتحقيقه .

الفصل الثالث

النضــــال من اجـل الوحــــدة : الجهـاد)

١ - المرحلـــة مــن ١ ـ ٦ هـ

- الموقف من اليهود ـ

٢ - المرحلة من الخندق الى خيبر

٣ - المرحلة من خيبر الى مكـــة

٤ - المرحلة من مكة الى الوداع

قام الرسول (ص) بعدة حملات عسكرية كان الهدف منها تحرير الجزيرة العربية من الشرك وبناء الدولة العربية ، قاد منها خمسا وعشرين حملة بنفسه واسند خمسا وثلاثين حملة الى بعض الصحابة(١) والملاحظ على هذه الحملات انها اتجهت الى مناطق مختلفة في الجزيرة ، غير أن ابرزها كانت باتجاهين :

الاول :

نحو مكة حيث يوجد الخصم التقليدي (قريش) وحلفائه من الاحابيش وكنانة واهل تهامة وهم مادة تحالفاتها الاساسية وعصب قوتها(٢) وتدور علاقاتهم جميعا حول حماية النشاط التجاري لقريش وتامين طرقه اضافة الى اعتبارات اخرى ثانوية .

الثاني :

نحو الشمال الى خيبر وغطفان والروم : للحيلولة دون تكون مركز قوة جديدة على حساب الصراع مع قريش وتحقيق هذا الهدف ضروري ، لان تكون مركز قوة تساهم فيه اطراف اجنبية كالروم مع اليهود يقود الى اوضاع غير ايجابية في الجزيرة ويهدد مستقبل الستراتيجية الجديدة . ولاشك ان اعظم المعارك التي نجمت عن هذه الحملات هي بدر ، احد ، الخندق ، خيبر ، موته ، ومكة . وادت هذه الجهود الى تثبيت الاسلام في المدينة وتامين انتشار مبادئه مصحوبة بالسلطة المركزية اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا ، اي قادت الى بناء الدولة العربية .

ونستطيع تمييز المراحل التالية في تطور جهود الرسول (ص) لبناء الامة العربية العقائدية :

---

(١) الواقدي : المغازي ، ايضا تاريخ الخميس : ١/٣٥٦

(٢) تاريخ الطبري : ٢/٥٠٠

اولا – المرحلة من سنة ١–٦ هـ :

وجه الرسول (ص) خمس عشرة حملة الى قريش في الفترة من سنة ١ هجرية حتى سنة ٦ هجرية ، وكان هدفه الرئيسي من هذه الحملات انهاء علاقاتها بالقبائل ، وفرض العزلة عليها في مكة ، واضعاف تجارتها ، واقلاق طرقها او حتى قطعها ، فالتجارة شريان حياة قريش ومصدر قوتها ، وتهديدها يعني حرمان قريش من مصدر قوتها اولا ، واضعاف مركزها السياسي مع القبائل ، خاصة تلك التي كانت لها مع قريش اتفاقيات تتعلق بخفارة قوافلها التجارية ، وقد ركز الرسول (ص) جهده في هذا الاتجاه وعلق عليه اهمية كبيرة ، لانه كان يعرف مدى اعتماد قريش على هذه القبائل ، وقد نجح فعلا في تحويل موقف قبائل الساحل ، خاصة خزاعة الى موقف ناصح غير معاد ، كما هادن بعض كنانة(١) . وفي معركة بدر احرز الرسول (ص) نصرا من اروع الانتصارات ، كانت له قيمته الستراتيجية في تثبيت الكثير من الامور التي اسسها الرسول (ص) في المدينة ، خاصة ما يتعلق منها ببناء الانسان العربي المؤمن بعقيدته ، ومع أن قريش كسبت الجولة في احد(٢) الا ان عوامل الانهاك بدت عليها واضحة ، وكان اخر مظاهر قدرتها الحلف الذي هيأته لغزو المدينة بالتعاون مع يهود خيبر ومن معهم من بني النضير وقبيلة غطفان ، اضافة الى بعض حلفائها التقليديين من كنانة ، وقد قام هذا الحلف على اساس خوض معركة سريعة وحاسمة تحسم وضع المسلمين في المدينة ، مستفيدة من القوة البشرية التي هيأتها اضافة الى مراهنة قواها على تأييد بني قريظة داخل المدينة .

كانت خطة الرسول (ص) تقضي بتحصين المدينة والتحصن بها وافقاد الخصم فرصة خوض معركة سريعة وحاسمة وفرض الاكتفاء على القوة الزاحفة

---

(١) تأريخ الطبرى : ٢/٦٤٢

(٢) قبل معركة احد انسحب المنافقون من الجيش ، واثناء المعركة لم يلتزم المسلمون بأوامر الرسول (ص) وخطته للقتال .

واجبارها على الاستقرار ، فلجأ الى حفر الخندق ، فلما جاءت قوات الحلف ووجدت نفسها ازاء صيغة جديدة في المواجهة اضطرت الى الاستقرار خلف الخندق ، وكان طبيعيا ان يفقدها الوضع الجديد زخم القتال والاستعداد له ، ويثير صعوبات التموين وتناقضات المتحالفين ، أي انه افقد الحلف عوامل انتصاره والغى قيمة التفوق العددي له ، فلما تم له ذلك اكملت الدبلوماسية مهمة افشال الحلف ، وكان التحرك الدبلوماسي باتجاهين :

الاول :

نحو غطفان باعتبارها اضعف حلقات الحلف لبداوتها واعتمادها الترحال وضعف قدرتها الاقتصادية ، لذلك نجد الرسول (ص) يرسل الى عبيدة بن حصن بن حذيفة والحارث بن عوف قائدي غطفان انه سيعطيهما ثلث ثمار المدينة على أن ينسحبا بمن معهما ويشير ابن اسحق الى ان هدف الرسول (ص) كان دبلوماسيا بقوله « لم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح الا المراوضة في ذلك(١) » فالراجح ان هدف الرسول (ص) كان اثارة الشبهات حول جدية موقع غطفان في الحلف ، فلما استشار أهل المدينة ورفضوا القبول بذلك تخلى عن فكرة المصالحة ، فأصبح في حل من الاتفاق .

الثاني :

هو ما قام به نعيم بن مسعود الغطفاني ، يقال انه اسلم وستر اسلامه على قومه فبقى بينهم ، وانه استخدم علاقاته الجيدة مع اطراف الحلف في اثارة الشكوك بينهم ، وتأجيج تناقضاتهم بتوجيه من الرسول (ص) (٢)

وهكذا فشل الحلف ، وكان فشله يعني ان قريشا لم تعد ذلك العدو الفتي الذى يهدد ، انما شاخت وازدادت عزلتها عن القبائل ، وكان الرسول (ص) قد ادرك هذا الشيء ، فعندما انصرف من الخندق قال :

---

(١) سيرة بن هشام : ٢٦٢/٣

(٢) ن٠م : ٢٦٥/٣

« الان نغزوهم ولا يغزوننا » (١) وكان هذا يعني أن سياسته حققت أهدافها، فاضطربت تجارة قريش عندما تجح الرسول (ص) في موادعة القبائل بين مكة والمدينة ، واضطرها الى تغيير طريق تجارتها من الساحل واستخدام طريق العراق(٢) مما زاد في عزلتها ، وانهك اقتصادها وافقدها قدرة القتال.

الموقف من اليهود :

ولما هاجر الرسول (ص) الى يثرب ، ورتب أوضاع الجماعة المؤمنة ، عاهد اليهود في وثيقة المدينة واعطاهم منزلة مهمة مساوية للمسلمين ، الاهمية لانهم أصحاب كتاب ، ومع ذلك فلم يكن موقف احبار اليهود من الرسول(ص) وديا ، ظهر موقفهم المعادي في وقت مبكر عندما بداوا يخططون لاحراجه ، عن طريق توجيه اسئلة عن قضايا لم تتكامل احكامها في القرآن ، أو قضايا ذات طابع غيبي لم تتضح افكارها بعد ، مستفيدين من المعلومات الموجودة فيالديانة اليهودية حول الكون والاحكام الاجتماعية في الوقت الذى كان فيه الاسلام ما زال كعقيدة في اسسها العامة لم تنضج جوهريا ، ولم تتحدد تفاصيل الكثير من الامور فيها ، فهي عقيدة قيد التكون ، وحاولوا ان يثنوا الناس عن الدخول في الاسلام مستفيدين من اشتراك بعض المسلمين معهم في تقديس بعض مظاهر التوحيد ، وما يرتبط به مثل التوجه الى بيت المقدس اثناء الصلاة ، فلما صرفت القبلة في سنة ٢ هـ الى الكعبة(٣) اضطرب الاحبار وشعروا بخطورة الخطوة على ادعائهم الايمان بابراهيم الخليل وبانه كان يهوديا اذ بهذا التغيير احرجهم الرسول (ص) ودعاهم الى التوجه الى الكعبة لانها بيت ابراهيم والاجدر بهم باعتبارهم يؤمنون به ان يتجهوا الى بيته وهو أمر لا يمكن ان يفعلوه ، فهذه الخطوة كانت محاولة لكشف مدى جدية الاحبار

---

(١) تاريخ الطبري : ٥٩٣/٢

(٢) الواقدي : المغازى ١٨٧/٢ ، ١٩٧ ، تاريخ الطبري ٦٤٦/٢ ، أورد اشارة ابي سفيان الى ارتباك تجارة قريش قبل الحديبية .

(٣) سيرة بن هشام : ٢٧٣/٢

في الايمان بالتوحيد ، ثم تطور موقفهم الى انكار عهودهم للرسول (ص) (١) وكان لهم مركز اشبه بالمركز الثقافي يظهر انهم اتخذوه مكانا لدعاياتهم يعرف ببيت المدراس ومن انشط رجاله حبر يقال له فنحاص(٢) فلما كانت معركة بدر وما تحقق فيها من نصر ظهر حسد احبار اليهود فجمعهم الرسول (ص) في سوق بني قينقاع وعرض عليهم الاسلام فاظهروا تحديهم وتهديدهم له فاجلاهم من المدينة .

ثم نشط الاحبار من اليهود وخاصة من بني النضير في عداءهم للرسول (ص) وبعد احد ازدادوا تشكيكا به وبالقرآن وبموقع المسلمين في الاخرة وانكارهم استشهاد المسلم وادعائهم بان الجنة ستكون لليهود فقط (٣) ، ونشطوا اكثر في رد الناس عن الايمان بالله(٤) وتحالفوا مع قريش وادعوا أن دينها هو الحق وان محمد (ص) على باطل(٥) وقد شعر الرسول (ص) بخطرهم فأمر زيد بن ثابت بتعلم السريانية وقراءة كتب اليهود(٦)، واستخدام الحقائق المستكشفة في الرد على مواقفهم وبهذا اصبحت للاسلام اطر ثقافية تجيد الجدل في عقائد الاخرين .

حدد الرسول (ص) موقفه في أن نهى المسلمين عن مباطنة اليهود الذين نقضوا العهد والمقصود بهذا القرار الانصار ممن كانوا يواصلون رجالا من هؤلاء اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف قبل الاسلام(٧) فلما ثبت للرسول (ص) تعاونهم مع قريش واتصالهم بها ودعوتها لحرب الرسول (ص) واخلالهم بشروط وثيقة المدينة حاصر بني النضير واجلاهم من يثرب .

---

(١) ن.م : ص ٢٧٢
(٢) ن.م : ص ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، تاريخ الطبرى : ٤٧٩/٢
(٣) ن.م : ص ٢٧٢
(٤) ن.م : ص ٢٧٢
(٥) ن.م : ص ٢٧٩
(٦) تاريخ الخميس : ٤٦٤/١
(٧) ال عمران : ١١٨ « يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » سيرة بن هشام : ٢٧٧/٢

بقى من اليهود في المدينة بنو قريظة ومع ان الروايات لا تشير الى عدائهم للرسول (ص) في وقت مبكر والى حرصهم على استمرار علاقتهم بالرسول(ص) هادئة الا انهم نشطوا في سنة ٥ هـ في اثارة الفتنة بين الانصار ومحاولة الوقيعة بينهم مذكرين بحروبهم قبل الاسلام(١) وعندما احتمعت الاحزاب سنة ٥ هـ لغزوا المدينة وقف بنو قريظة مع الحلف ضد الرسول (ص) وخالفوا نصوص الوثيقة ثم تحصنوا في دورهم ورفعوا السلاح بوجه المسلمين فحاصرهم الرسول (ص) وقتل قادتهم من الاحبار واجلاهم عن المدينة .

استند الرسول (ص) في موقفه من اليهود الذين نقضوا العهد الى وعي دقيق ومعرفة واسعة بخلفيتهم التأريخية والراجح انه استفاد من تعلم بعض المسلمين السريانية وقراءتهم كتب اليهود ووقوفهم على محتوياتها اضافة الى ما ورد في القرآن وبخاصة سورة البقرة .

تحددت صفة اليهود لدى المسلمين بانهم ناقضون للعهود كفار لم يؤمنوا «يظهرون مالا يبطنون» (٢) وبأنهم مفسدين وسفهاء ومخادعون وتجار بخلاء جاحدون ينقضون العهود ويتعامون عن الحق بل ويكتمون الحق ، مشككون يقتلون الانبياء ، مزورون لكتاب الله « التوراة » يفرقون بين الناس ، يشترون الحياة الدنيا بالاخرة متكبرون يحبون الحياة اعداء جبريل والملائكة ، يكونون اموالهم بالباطل لن يؤمنوا(٣) والظاهر ان هذا الحوار الثقافي اثمر مع الكثير من اليهود فأمنوا مقتفين اثر بعض قادتهم الذين اسلموا مثل عبدالله بن سلام ومخيرق وغيرهم .

ثانيا ـ المرحلة من الخندق الى خيبر :

كان الرسول (ص) يرصد مظاهر التقهقر في قوة قريش ويرصد في ذات الوقت خصومه الاخرين ، بخاصة اليهود الذين بداوا ينشطون في خيبر

---

(١) ن٠م : ٢/٢٧٦

(٢) البقرة : ٦ ، ١٤

(٣) البقرة : ٦ـ١٠٦

مستفيدين من التحاق يهود المدينة الذين اخرجوا منها لنقضهم العهود والمواثيق المعقودة بينهم وبين الرسول (ص) وبعد معركة الخندق (الاحزاب) كان واضحا ان قوة الرسول (ص) بلغت قمة نضجها وتعاظمها وقد عبر الرسول (ص) عن هذا النضج بقوله « الان نغزوهم ولا يغزوننا نحن نسير اليهم » (١) وكانت دلائل هذا التعاظم كما يلي :

اولا – ان المدينة اصبحت خالصة من الجيوب المضادة والقوى المعادية فهي قاعدة متينة وامينة تمكن الرسول (ص) من الانطلاق الى خارجها والضرب في عمق العدو .

ثانيا – تقهقر قريش وفقدانها القدرة على تكوين اي حلف جديد ليضرب الرسول (ص) والتراجع عن الهجوم الى الدفاع .

ثالثا – تنامي القوة الذاتية للمؤمنين في المدينة فيما يظهر من تماسك اجتماعي وطاعة تامة للرسول (ص) ، وقدرات دبلوماسية وعسكرية قادرة على السيطرة على الظروف وتوجيهها وفقا لحاجات الدعوة والدولة الجديدة .

تطور الاوضاع بعد الخندق :

كانت الاوضاع الجديدة في الجزيرة بعد معركة الخندق تشير الى ان المؤمنين بقيادة الرسول (ص) هم الاقوى ، ومع ذلك فان الرسول (ص) لم يترك الاحداث دون رصد انما على العكس كان رصده للاحداث دقيقا جدا وكانت عيونه المنتشرة في كل مكان تزوده بالمعلومات عن تحركات الخصوم والاعداء(٢) وهي معلومات تجمعت وسجلت الدلائل التالية :

اولا – بروز خيبر مركز قوة جديد خاصة بعد ما انضاف لها اليهود الذين طردوا من المدينة لاخلالهم بالمواثيق ونكثهم العهود التي عاهدهم بها الرسول (ص) .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٥٩٣/٢ ، صحيح البخاري : ١٤١/٥

(٢) الواقدى : المغازي ٣٩٤/١ ، ٤٤١/٢ .

ثانيا ـ نشاط احبار اليهود ودعاتهم بين قبيلتي اسد وغطفان ومحاولاتهم الرامية الى تجديد حلف قديم كان قائما بين القبيلتين قبل الاسلام متخذين من اعتماد هذه القبائل على خيبر في ميرتها وسيلة للضغط عليها(١) .

ثالثا ـ اتجاه جهود اليهود نحو الشمال (فدك) وما خلفها ومفاوضتهم بني سعد لعقد تحالف ضد الرسول (ص) (٢) .

كونت هذه المعلومات لدى الرسول (ص) قناعة بأن تنامي خيبر وتحولها الى مركز قوة جديد يعني ضمنيا ان قريش اصبحت في موقع ثان وان استمرار هذا التطور في الاحداث يعني ان المدينة سوف تصبح في المستقبل وسط معادلة صعبة عناصرها خيبر مع تحالفاتها في الشمال وقريش في الجنوب ، وان أي تطور باتجاه توصل طرفي المعادلة الى التحالفات ثانية يعني تهديد المدينة تهديدا بالغ الخطورة .

موقف الرسول (ص) :

كانت خطة الرسول (ص) ذات مسارين :

الاول ـ اشغال خيبر وحلفائها واعاقة جهودهم وعدم تركها لتطور باتجاه هدفها دون اعاقة ، واشعار خيبر والقوى القبلية حولها بوجوده ، ورصده لحركاتهم وقدرته على التدخل متى شاء .

وقد نفذ هذا الهدف المحدود عن طريق :

١ ـ مضاعفة الحملات العسكرية باتجاه خيبر والقوى التي تسعى لكسبها فبين سنتي ٥ـ٧هـ وجه سبع حملات عسكرية الى خيبر ومن حولها(٣) .

---

(١) ن.م٢/٦٣٧ ، ٧٠٢ ، اسد وغطفان تمتنع بخيبر عن العرب أنظر أيضا تاريخ الخميس : ٤٣/٢ كان سفراء اليهود الى هاتين القبلتين كنانة بن ابي الحقيق وهودة بن قيس الوائلي .

(٢) الواقدي : المغازي : ٥٦٢/٢ ، تاريخ الطبرى : ٦٤٢/٢

(٣) الواقدي : المغازي ـ يراجع الجزء الاول .

٢ ـ القيام بعمليات اغارة خاطفة لتصفية بعض المواقع النشطة والمتقدمة في جهود خيبر مثل ابي رافع سلام بن ابي الحقيق وهو من الذين نشطوا في عقد حلف الاحزاب . كما قامت سرية خاصة بقيادة عبد الله بن رواحه بالهجوم على خيبر واختطاف اسير بن رزام مع ابرز رجالات خيبر وقتلهم (١) .

الثاني ـ تعميق ضعف قريش وفرض الانكفاء عليها في مكة لتأمين عدم مشاركتها في الاحداث المقبلة او عدم افادتها من الظروف التي قد تفرزها احداث المستقبل .

وقد هيا الرسول (ص) لخطته هذه على النحو التالي :

١ ـ اذكاء العواطف الدينية والشخصية لدى المسلمين نحو مكة عن طريق اظهار قدسيتها وواجب المؤمنين بتقديسها باعتبارها مركز ديانة ابراهيم الخليل ابي الانبياء ورمز الوحدة الروحية للعرب . وهذا يعني ان الحج لهذا المركز واجب عليهم (٢) .

٢ ـ اعلان تقديس المسلمين لمكة على الناس ومحاولة تكوين قناعة لدى العرب بحق المسلمين في زيارة مكة .

وعندما اطمأن الرسول (ص) الى تعبئة المؤمنين نفسيا على هذه الامور قرر الخروج الى مكة حاجا سنة ٦هـ وقد اختلفت الروايات في عدد المؤمنين معه ولكن ارجحها انهم كانوا ١٤٠٠ مؤمن(٣) .

لقد كان توجه الرسول (ص) الى مكة توجها عسكريا اظهر فيه كل عوامل القدرة العسكرية ومقومات القوة ، قال (ص) لبديل بن ورقاء الخزاعي : أنا لم نجيء لقتال احد ولكننا جئنا معتمرين ، وان قريشا قد نهكتهم الحرب وأخذت بهم فان شاؤا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس وان شاؤا ان يدخلوا فيما

---

(١) الواقدي : المغازي ٢/٧٠٢ ، سيرة بن هشام ٤/٤٠ ، صحيح البخاري : ٥/١١٧ ، تاريخ الخمس ٢/١٢ ، ١٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٢/٦٣٥ رواية علي بن ابي طالب تاريخ الخميس ٢/١٢ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٢/٦٢٠ .

دخل فيه الناس فعلوا والا فقد حموا وان هم ابوفو الذى نفسي بيده لاقاتلنهم على امري هذا حتى تنفرد سالفتي او لينفذن الله امره(١) ان هذا القول يحدد لنا وحسب أولويات الخطة التي اتبعها الرسول (ص) .

١ ـ انه جاء حاجا .

٢ ـ وان قريشا انهكت وأمامها احد ثلاث خيارات :

أ ـ المهادنة (فان شاؤا مادتهم مدة) .

ب ـ الدخول في الدين الجديد .

جـ ـ القتـــــال .

وطبيعي ان الرسول (ص) حسب اولوياته كان يريد المهادنة غير انه لكي يصل اليها ، عليه ان يظهر ما يعزز انكفاء قريش ويرهبها ويدفعها الى الصلح فليس من المعقول ان يتجه للصلح ضعيفا كان لا بد ان يذهب بكل مقومات قوته ومظاهرها لكي يدفع خصمه نحو الصلح فالانطلاق من موقع القوة هو الذي يحسم القضايا ويوجهها نحو الهدف المرسوم . وعوامل القـــوة التي اعتمدها بالتعبئة النفسية للمؤمنين الى الحد الاقصى (كان أصحاب رسول الله صلى الله الرسول(ص) كانت تتمثل في الطاعة المطلقة التياظهرها المؤمنون له(٢) والارتفاع عليه وسلم خرجوا وهم لا يشكون في الفتح) (٣) وانهم كانوا استوعبوا تحقيق هذا الهدف الى الحد الذي لن يثنيهم عنه شيء . حتى ان الرسول (ص) واجه اشكالا في علاج حالة الاستغراب التي مر بها المؤمنون عند عقدة الصلح والتي وصلت حد الاعتراض على قرار الرسول (ص) (٤) وفيرواية للطبرى انهم لما راوا

---

(١) تاريخ الخميس : ١٨/٢ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦٢٧/٢ .

(٣) تاريخ الخميس : ٢٢/٢ .

(٤) تاريخ الطبرى : موقف عمر بن الخطاب ٦٢٤/٢ ، رفض المسلمون حلق شعورهم ونحر اضحياتهم ص : ٦٣٧ ، موقف علي بن ابي طالب اثناء كتابة نص الصلح ص ٦٣٦ .

من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في نفسه دخل الناس من ذلك امر عظيم حتى كادوا ان يهلكوا(١) .

ولقد نجحت سياسة الرسول (ص) في فرض الانكفاء على قريش وتعميق شعورها بالضعف والتخاذل بدليل كثرة السفراء الذين ارسلتهم قريش للمفاوضة وعددهم خمسة(٢) بينما لم يرسل الرسول الا سفيرين(٣) .

لقد تجمعت عدة دلائل تؤكد ان هدف الرسول (ص) كان جر قريش الى مهادنته بدليل :

١ ـ عدم تشديده على سرية توجهه الى مكة والسماح بتسرب ، معلومات مسيرة الى المشركين فهو اذا كان يريد لهم ان يعلموا بتحركه وان يثير تحركه في اوساطهم جدلا يقلقهم « الحرب النفسية » .

٢ ـ تأكيده على رغبته في الهدنة منذ خروجه « ويح قريش ، لقد أهلكتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب » (٤) وقد حاول ايصال هذا الراى أهل مكة مع العديد من الناس(٥) .

٣ ـ اللجوء الى ابراز قوته وبالمقابل احداث تناقض يضعف قوة الخصم يفرض عليه التوجه نحو الصلح ، فعندما قدمت قريش قوم من الاحابيش بقيادة سيدهم الحليس حرص الرسول (ص) ان يقدم «الهدى» لما كان يعرفه من تأله الاحابيش لكي يقتنعوا بانه لم يات ليحارب وقد تحقق هذا فعلا وعندما رجع سيد الاحابيش الى مكة : قال يا معشر قريش اني قد رايت ما لا يحل صده الهدى في قلائده ، قد اكل أوباره من طول الحبس عن

---

(١) ن.م : ٦٣٥ .

(٢) تاريخ الخميس : ١٨/٢ ، ٢١ .

(٣) ن.م : ١٩/٢ ، ٢٠ .

(٤) سيرة بن هشام : ٢٥/٤ ، تاريخ الطبرى : ٦٢٠/٢ ، ٦٢٣ .

(٥) ن.م :٢٥/٤ ، تاريخ الطبرى : ٦٢٥/٢ ، قصة بديل بن ورقاء الخزاعي ٦٢١/٢ قصة بشر بن سفيان الكعبي .

محله . فقالوا له : اجلس فانما انت رجل اعرابي لا علم لك (١) فغضب الحليس من رد قريش وقال : يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم ان تصدوا عن البيت الحرام من جاءه معظما له او لاتفرن بالاحابيش نفره رجل واحد(٢) .

٤ ـ استخدامه عثمان بن عفان سفيرا لمفاوضة قريش وهو اكثر المؤمنين لينا واكثرهم اقارب في مكة (٣) .

٥ ـ حرصه على تذليل كل العقبات التي تقف أمام الصلح واظهاره من المرونة قدرا لم يستطع اقدم اتباعه فهمه أو استيعابه باستثناء ابي بكر الصديق والقبول ببعض الامور التي اعتبرها المؤمنون « دنية في الدين » (٤) ومن ذلك .

١ ـ الموافقة على استبدال «عبارة بسم الله الرحمن الرحيم» بعبارة « باسمك اللهم » وهي العبارة التي كانت تستفتح بها قريش .

٢ ـ الموافقة على حذف عبارة « رسول الله » والاكتفاء باسمه واسم والده طرفا في المصالحة .

تطور المفاوضات :

تبادل الطرفان السفراء على مدى يوم كامل وكان الرسول (ص) معسكرا في الحديبية فلما نضجت نقاط الاتفاق اجتمع الرسول (ص) بمندوب مكة سهيل بن عمرو في خيمة الرسول (ص) واتفقا على المصالحة في صلح عرف بالحديبية : نصه ـ هذا ما صالح عليه محمد ابن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض

---

(١) تاريخ الطبري : ٦٢٨/٢ ، تاريخ الخميس : ١٩/٢ الهدى « ابل تنحر في موسم الحج » .

(٢) ن٠م :

(٣) تاريخ الطبري : ٦٣٠/٢ .

(٤) سيرة بن هشام : ٢٨/٤ .

على انه من أتى (رسول الله) (١) (محمدا) من قريش بغير اذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع (رسول الله) (محمد) (٢) لم ترده عليه وان بيننا عيبه مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال وانه من احب ان يدخل في عقد (رسول الله) (محمد) وعهده دخل فيه ، ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. وانك ترجع عنا عامك هذا ، فلا تدخل علينا مكة ، وانه اذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك ، فاقمت بها ثلاثا ، وان معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها بغير هذا (٣) .

بعد الصلح اخذ الرسول (ص) بيعة المؤمنين وهي البيعة التي عرفت ببيعة الشجرة وبيعة الرضوان من الرضا (لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة) (٤). وفي تقديرنا ان هذه البيعة كانت لعلاج حالة القلق التي اعترت المؤمنين وعدم استيعابهم قبول الرسول (ص) بالمصالحة وفي ظل امور اعتبروها «دنيه في الدين» قد يكون المؤمنون مهيئين لفكرة المصالحة غير انهم لم يكونوا كذلك بالنسبة لمصالحة لا تقر بان محمد بن عبد الله (ص) رسول الله ويعبر موقف عمر بن الخطاب عن هذا بشكل دقيق(٥) .

نتائج الصلح :

اسفر الصلح عن نتائج مباشرة واخرى غير مباشرة :

اولا ـ النتائج المباشرة :

١ ـ تخلي قريش عن فكرة قيادتها للعرب بدليل تركها الحرية لدخولهم مع

---

(١) في تقديري ان العبارة اضافة اسلامية لاحقة فقد رفضت قريش كل ما يشير الى الاسلام في الصلح والاضافة بين هلالين من عندي .

(٢) انظر اعلاه .

(٣) صيغة العبارة غير منسجمة مع صيغة الصلح في المقدمة وهي اشبه بتسجيل حوار المفاوض المكي من كونها نصا في الصلح .

(٤) الفتح : ١٨ تاريخ الطبري ٢/٦٣٢ .

(٥) تاريخ الطبرى : ٢/٦٣٤ (لا تذكر المصادر ان احدا تخلف عن البيعة باستثناء الجد بن قيس الانصاري . انظر ص : ٥٣٢ .

الرسول واكتفاءها بتحصين نفسها هي ضد مؤثراته وقد نجم عن هذا تحالف الرسول (ص)مع خزاعة وانتشار اتباعه ودعاته بين العرب .

٢ - اصبح بامكان الرسول (ص) ان يزور مكة ويبقى فيها ثلاثة ايام ، اي اصبح المجتمع الجديد الذي بناه الرسول (ص) شيئا معيشا يراه اهل مكة عن قرب ودونما انفعالات تحريضية وهي مسالة تتيح لهم المقارنة وتبين الفروق الجوهرية بين المجتمع القديم بعيدا عن نزعة التحرض والاستعداء(١) .

٣ - اعتراف قريش بانها لم تعد وحدها المتسيدة في الجزيرة وان هناك قوى اخرى تستطيع ان تحتل موقعا مساويا لها بين القبائل .

٤ - الافادة من الهدنة في تعزيز ايمان القبائل المحيطة بالمدينة او تلك التي تقع بينها وبين مكة والتفرغ لدعوة قبائل ابعد من حدود مكة والمدينة .

ثانيا : النتائج غير المباشرة :

حقق الصلح النتائج غير المباشرة التالية :ـ

١ - تفكك المجتمع المكي وانهيار مقوماته الدينية والفكرية وفشل مقاومته وتدهور قناعة اهل مكة بها ، حتى انهم لم يصمدوا اذا كلموا بالاسلام حتى يدخلوا فيه فأمن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة(٢) .

٢ - تحرير خيبر :

كان ابرز نتائج الصلح اطلاقا « تحرير خيبر » فهي المهمة التي من اجلها عقد الرسول (ص) صلح الحديبية وقد وضحت بيعة الرضوان هذه الناحية في الصلح « لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما وعدكم الله مغانم كثيرة تاخذونها فعجل

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٣٨/٢ الزهرى .

(٢) تاريخ الطبرى : ٦٣٨/٢ ، تاريخ الخميس : ٦٥/٢ .

لكم هذه وكف ايدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما واخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » (١) فهذا الصلح جمد قريش وكف خطرها عن المسلمين ومكنهم في أخرى غيرها هنا ادرك المسلمون البعد الستراتيجي في صلح الحديبية وبأن المرونة التي اظهرها الرسول (ص) يفسرها التوجه الجديد ويبررها الخطر الذى ينتظر المسلمين لو انهم أغفلوا رصد الاحداث بدقة ، لذلك ما ان رتع الرسول (ص) من مكة حتى تحرك الى خيبر (٢) وامر المسلمين جميعا بالتحرك اليها دون انتظار ومما لاشك فيه أن الرسول (ص) افاد كثيرا من صلح الحديبية وامن خطوطه الخلفية ، وعندما وصل خيبر نزل بينها وبين غطفان والشمال اى عزلها عن القوى التي كان يتوقع أن تساعدها (٣) . وربما ان الرسول (ص) كلف قوة محدودة في التحرك حول غطفان لاشغالهم ثم أغار على حصون خيبر وما أن تم له تحريرها حتى هاجم بنى سعد في فدك (٤) .

ثالثا : من تحرير خيبر الى تحرير مكة :

لقد نجح الرسول (ص) بعقده صلح الحديبية أن ينفذ الى مكة ويجابه قريشا في دارها لا بالقوة ولكن بجوهر مبادئه وما يمثله من مستقبل ، بمجتمعه الذى تجاوز حدود القبيلة الى الامة حيث التقى الافراد لا كأبناء قبائل انما كأبناء امة في نظامهم وطاعتهم وخلقهم وتضامنهم وكان لا بد لهذه المجابهة من رد ومع ان رد الفعل هذا ظهر في اسلام بعض رجالات الخط الثاني في مكة امثال خالد بن الوليد وعمرو بن العاص (٥) فان رد الفعل الحقيقي كان في انهيار البناء

---

(١) الفتح : ١٨ - ٢١.

(٢) لم يبق الرسول في المدينة بعد الحديبية سوى عشرون يوما . تاريخ الخميس : ٣/٢ ٤.

(٣) الواقدى : المغازى ٦٣٩/٢ ، تاريخ الطبرى : ٩/٣ .

(٤) الواقدى : المغازى ٥٦٢/١ ، ٧٢٣ .

(٥) سيرة بن هشام : ٧٠/٤ .

الاجتماعي لمكة سياسيا واقتصاديا وثقافيا وانهاء مركزها بين القبائل ، وقد جاء انتصاره في خيبر ليؤكد هذه الامور مجتمعة بشكل قوى ويشيع الحماس القومي في الجزيرة العربية فتنتشر اخبار الدولة الجديدة ويسمع العرب بعدلها وبفضائل مجتمعها . ومع أن المسلمين هزموا في معركة مؤته أمام البيزنطيين (١) فان هذه الهزيمة لم تكن هزيمة وما كان ممكنا أن يعتبرها أحد كذلك وحتى قريش ، على العكس أن توجه المسلمين الى معركة لمجابهة الروم احدى القوتين اللتين كانتا تتحكمان بالعالم وتسيطران على أجزاء كبيرة من الوطن العربي ، يعتبر انتصارا بحد ذاته ، وعندما اصبحت حدود الدولة العربية تمتد بين فدك ومكة كان هذا الاتساع الجغرافي يعني اتساع الامل بالنسبة للامة العربية ، واختزالا للفاصل بينها وبين المستقبل الى اقصر مسافة بل كان المسلمون يدركون أن المسافة التي تفصلهم عن المستقبل لا تتجاوز المسافة بين المدينة ومكة ، وكان على الرسول (ص) ان يواصل قطع هذه المسافة لذلك عندما نقضت قريش وحليفتها بكر الصلح (٢) باعتداءهما على خزاعة حليفة الرسول (ص) بدا يتهيأ لقطع تلك المسافة وهكذا كان سنة ٨ هـ اذ تقدمت كتائب المؤمنين فيها عشرة آلاف مؤمن من المهاجرين والانصار ومن تبعهم ليحرروا مكة ومن ثم الطائف .

رابعا : من مكة الى الوداع :

اتاح الاتساع التدريجي للدعوة في المدينة ان يحتك العرب بالاسلام وان يسمعوا انباء انتصاراته على المشركين ، وابتدات اخبار المجتمع الجديد تنتشر ومعها المزيد من حياة اولئك الناس الذين هاجروا وانشأوا بناءا اجتماعيا وسياسيا في المدينة وما هم عليه من الفة وود وما يسودهم من محبة وعدل وتعاون ، وكانت هذه الاخبار تدفع العرب بالضرورة الى مزيد من المعرفة والاطلاع ، وكلما كانت حدود الدعوة الجديدة تتسع كان الحماس يتسع في نفوس العرب ، فلما تم تحرير مكة أصبحت دولة المدينة تشترك في حدودها مع

(١) سيرة بن هشام : ٢٩٦/٣ .

(٢) سيرة بن هشام : ٤/٣ ٨.

اليمن وشرق الجزيرة واطرافها الشمالية ، وكان لهذا الاتساع والمبادىء السامية التي تحكمه اثرهما في اقناع العرب بالدخول في سلطة الدولة الجديدة، وشهدت الفترة بعد تحرير مكة توافد وفود القبائل العربية على المدينة مبايعة حتى سمي عام ٩ هجرية بعام الوفود . وكانت هذه الوفود تنزل في دارين يبدو ان الرسول (ص) خصصهما لنزول الوفود هما دار رملة بنت الحارث (١) ودار بلال وبعض الوفود دنزلت في دور اخرى ، وهكذا اصبحت الجزيرة العربية جميعها موحدة ، رغم ان هناك مناطق تشهد اوضاعا غير طبيعية مثل نجران حيث احتفظ اهلها بشخصية شبه مستقلة بعد صلحها الذي عقدته مع الرسول (ص) ، واليمن حيث يوجد الاحتلال الساساني واليمامة ويشار الى عدم اسلام اهلها .

اتجه الرسول (ص) الى تنظيم الدولة الجديدة ، فعين عماله على المناطق المختلفة والقبائل ويلاحظ على سياسته في هذه المرحلة انها اتسمت بعدة سمات :

١ ـ استخدامه عنصر الشباب ، فقد عين عتاب بن اسيد على مكة وهو لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره كذلك عثمان بن ابي العاص على الطائف وهو في نفس السن .

٢ ـ انه استخدم في احيان كثيرة ابناء تلك المناطق والقبائل ممن اسلموا وهاجروا الى المدينة وزودهم بكتب حدد فيها سياسته .

٣ ـ والخط العام الغالب على هذه السياسة هو محاولة توعية الناس بالمبادىء الاساسية للسياسة العربية دون مساس مباشر بالتقاليد والاعراف البدوية الا ما كان يتناقض كليا مع المبادىء الجديدة .

وفرض الرسول (ص) الصدقة على الاموال غير انه امر بوضعها في اهلها وعدم نقلها الى المدينة فكانت الصدقة تجمع من الاغنياء وتوزع في فقراء القبيلة والمنطقة فاذا زادت نقلت الى اهل الارض او القبيلة المجاورة وبقيت هذه

---

(١) طبقات بن سعد : ١/٢/٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) م . ن : ٤٠ ، ٤٣ ، ١١ ، ٨٢ .

السياسة قائمة الى زمن متاخر من عهد الراشدين وحرص على عدم اثارة التناقضات في المناطق الداخلة في الاسلام حديثا غير ان قدرات عماله تباينت في تنفيذ هذه السياسة فقد اظهر بعضهم تزمتا شديدا وعدم مرونة في التعامل(١) بينما نجح البعض الآخر في تنفيذ سياسته دون اثارة تناقضات تذكر .

حركات الارتداد :

كانت سنة ٩ هـ سنة قحط في جزيرة العرب (٢) وان بعض الوفود شكوا للرسول (ص) حالة الضعف التي يعانونها وربما كانت هذه الوضعية واحدا من العوامل التي اثارت تساؤلات العرب وربما كانوا طلبوا من المدينة أن تساعدهم لاعتقادهم بقدرتها على ذلك ، والظاهر ان بعض المرتبطين بالاوضاع القديمة استغلوا هذه الاوضاع ونشطوا في حركات انشقاقية ، والقديم بالنسبة لهم القبلية وما تمثله من قيم وافكار استقلالية ، وانهم شعروا بالوحدة تفقدهم مصالحهم السياسية وبالمبادىء الجديدة تضعف امتيازاتهم وتلغيها فرفعوا لواء المعارضة وكانت ابرز المناطق في هذا المجال اليمامة واليمن .

ففي اليمامة يظهر مسيلمة بن حبيب في بني حنيفة معارضا الرسول (ص) عارضا عليه مشروعا اقرب الى الاتحاد بدل الوحدة «فاني قد اشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ولكن قريشا قوم معتدون»(٣) ويظهر ان مسيلمة حضر الى المدينة وانه فاوض الرسول (ص) غير انهما لم يتفقا ، فقد رفض الرسول (ص) أن يعترف به الا كواحد من المسلمين ان أسلم (٤) .

---

(١) الكوفي : كتاب الفتوح : ٥٨/١ اصرار زياد بن لبيد .بياضي عامل الرسول (ص) على كنده على أخذ ناقة بعينها للصدقة وعدم تسامحه مع صاحبها .

(٢) طبقات بن سعد : ٤٢/٢/١١ ، ٤٣ .

(٣) سيرة بن هشام : ٢٢٠/٤ . السهيلي : ٣٥٢/٢ . تاريخ اليعقوبي ١٤٦/٢ البلاذري : فوق البلدان ، ٨٧ .

(٤) لمزيد من الاطلاع على بردة مسيلمة راجع الحديدي : نزار عبد اللطيف ، الجامة وردة مسيلمة .

كان الاتجاه العـام في موقف مسيلمة قبليا ، فقبيلة بني حنيفة في اليمامة كانت قوة قبلية تأصلت فيها الروح القبلية لعوامل متعددة في مقدمتها شعورها باهميتها وبقوتها ، حتى عبر الشعراء عن هذه القوة بشعرهم .

وجدنا ابانـا كان حـل ببلـدة
سوى بين قيس قيس عيلان والفزر
فلما نات عنـا العشيرة كلهـا
اقمنا وحالفنا السيوف على الدهر
فما اسلمتنا بعد في يوم وقعـة
ولا نحن اغمدنا السيوف على وتر (١)

ولقد ارتبطت الروح القبلية باقليمية محددة هي اليمامة لذلك نجد مسيلمة يطرح موقفا قبليا اقليميا بحتا فهو اضافة لتمسكه باليمامة كاقليم يتمسك بربيعة

واعرضت اليمامة واشـمخرت
كاسياف بايـدي مصلتينا (٢)

ويتسمى (نبي ربيعة) (٣) وكان يخاطب بني حنيفة ويحثهم للدفاع عن انسابهم واحسابهم (٤) .

اما اليمن (٥) فقد كانت تعاني من الاحتلال الساساني ، وكانت فيهـا حركة مقاومة لهذا الاحتلال قوامها تحالف قبائل متعددة مثل زبيد والحارث

---

(١) ن.م : ص ٥٥ والشعر لموسى بن جابر الحنفي شاعر من قبل الاسلام .

(٢) ن.م : ص ١٦ .

(٣) ن.م : ص ١٥٧ سبق لابي طالب عم الرسول (ص) ان اقسم (باله ربيعة) طبقات بن سعد ٧٦/١/١ .

(٤) ن.م :

(٥) الحديثي : نزار عبداللطيف : اهل اليمن في صدر الاسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٨ .

بن كعب وبني عبدالمدان وخولان وقد افادت هذه الحركة من حالة التذمر في الريف الناجمة عن استغلال المرابين للفلاحين وكثرة الضرائب التي كانـــوا يدفعونها (١) . حاول الفرس مجابهة هذه الحركة بالتحالف مع همدان فيمـا انضمت مراد للحركة المسلحة ، واشتد الصراع بين الحركة والفرس بقيادة باذان ، وفي هذه الاثناء يبرز عبهلة بن كعب الذى عرف بالاسود العنسي لقيادة الحلف الثائر وابتدات الثورة تكتسح النفوذ الفارسي وتقتل باذان وابنـــه وتدخل صنعاء وتستولي على اليمن وتبدأ باجلاء القوة الفارسية .

جاء هذا التطور في ذات الوقت الذي حررت فيـه مكة وجاءت الوفود في وقت ارسل فيه الرسول (ص) عماله الى مناطق الجزيرة المختلفة ومنها اليمن ومع ان الرسول (ص) حدد سياسته بان اعفى الرقيق والعمال الزراعيين من الصدقات (٢) الا ان القوة المسلحة الفقيرة وقفت ضد وحدة اليمن في الدولة العربية وظهر هذا التضاد في شكل حركة اقليمية عبر عنها عبهلة بقولـــه : (ايها المتوردون علينا امسكوا علينا ما اخذتم من ارضنا ووفروا ما جمعتم فنحن اولى به ، وانتم على ما انتم عليه (٣) .

كانت سياسة الرسول (ص) تقوم على اساس عدم تأجيج الموقف مـــع المعارضة لكي لا تستفيد من المجابهة في جر الاخرين من الذين لم يستقروا بعد ، لذلك اعتمد على :

اولا ــ استنهاض اهل المنطقة التي تشهد حركة انشقاقية ضد تلك الحركة .

ثانيا ــ استخدام سياسة الالهاء بالمراسلات واطالة حالة اللاحسم لاتاحـــة المجال امام عماله كي يجمعوا مسلمي تلك المناطق وينشروا وعيـــا

---

(١) النهاية في غريب الحديث : ٣٢١/١ ، نهاية الارب : ٣٧١/٦ ، ٣٧٢ ، الوثائق السياسية ١٣٣ ، تاريخ الطبرى : ٢٢٩/٣ .

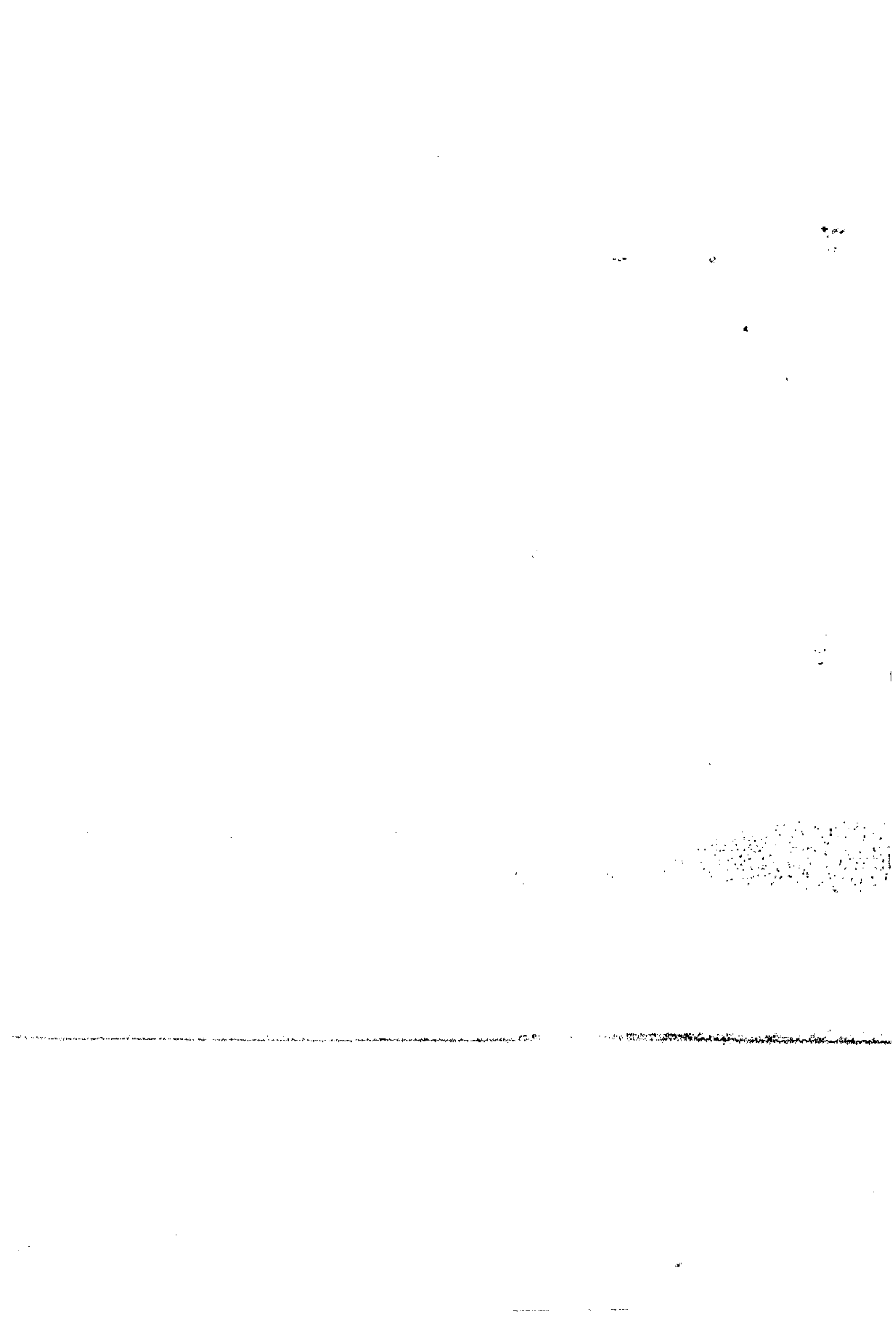
(٢) الوثائق السياسية : ١٥١

(٣) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر : ١٢٦ ، تاريخ الطبرى : ٢٢٩/٣ الذهبي ، تاريخ الاسلام : ٣٤٢/١

حقيقيا بمبادىء الدولة يضعف حجم الانشقاقيين ، لذلك لم يرسل جيوشا الى المناطق المعارضة . غير ان الرسول (ص) توفي تاركا للمسلمين مهمة تثبيت الوحدة في الجزيرة العربية والتوجه لتحرير الاجزاء المحتلة من الوطن العربي وقد اشر لهم الطريق عندما انتدب جيش اسامة بن زيد (١٨ سنة) الى فلسطين من ارض الشام .

الباب الثالث

بنـاء الدولـة العربيـة



الفصل الاول

التحريـــر والوحـــدة

١ ـ الاوضاع بعد وفاة الرسول (ص)

٢ ـ المهام التي واجهتها الخلافة

٣ ـ حـروب التحريــــر

الاوضاع بعد وفاة الرسول (ص) :

توفي الرسول (ص) في اليوم الثاني من ربيع الاول سنة ١١ هـ وجزع المسلمون جزعا شديدا وفاجأهم موته حتى ان بعضهم لم يصدق وفاتـــه ، واتسع نطاق المعارضة ليشمل اضافة الى الحركات القبلية والاقليمية العناصر الرجعية المحافظة في القبائل الاخرى التي وجدت في وفاته فرصة للتحلل من ارتباطاتها والعودة الى القديم ونشطت في الشمال تحشدات الـــروم واخذت تضغط على الحدود الشمالية للدولة .

عالج ابو بكر ضعف المسلمين وجزعهم لوفاة الرسول (ص) بتاكيده حقيقة موته بقراءة الاية الكريمة « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسول ، أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » (١) وهو استخدام ذكي لتأكيد حقيقة موت الرسول القائد (ص) ، يخفف وقعة بقاء المبادىء واستمرارها ويوفر الايحاء بصمـــود المسلمين ويمنحهم الصبر والثبات .

لم يتوقف المسلمون كثيرا عند وفاة الرسول (ص) فمبادئه وتوجيهـــاته ماثلة للعيان تعيش في نفوسهم وتثير فيهم الشجاعة وتلهمهم الوضوح الكافي وتؤشر لهم حياتهم ، وقد ظهر استقرار هذه المباديء وقوة فعلها ورسوخهـــا تقاليد عمل في انجاز المسلمين اروع خطوة في تاريخهم بانتخابهم الخليفة ، فقد كان هذا الانجاز تأكيدا لاستمرار المباديء من خلال استمرار السلطة عـــلى اساس المباديء وتقاليدها . فالخليفة من المســـلمين الاول وكان شابا ناضـــجا عندما امن بالرسول (ص) وصدقه ووقف بجانبه في كل مراحل تطور الدعوة والدولة .

المهام التي واجهتها الخلافة :

عند تولي ابي بكر الخلافة كان الرسول (ص) قد انجز عمليا اسس بناء

---

(١) ال عمران : ١٤٤

الامة وحدد اتجاهات نموها وتطورها وكان واضحا ان بناء الامة القومية يعني حتمية وشرعية بناء دولتها القومية ، ومع انه ارسى الاسس العامة لبناء سلطة الامة ودولتها الا انه بالتأكيد لم يكن معنيا كثيرا بمسالة بناء الدولة ، فهو لم يكن ازاء امة لها دولتها التي تعاني من خلل في وضعها ليصلحه ، انما كان ازاء مهمة خلق امة من شتات افرزته مرحلة من الاحتلال تربو على ١٢٠٠ عام منذ بدء الغزو الاجنبي وحتى عصره . لذلك انحصرت مهمته في انضاج الوعي بالامة ومن ثم تكوين نواة هذه الامة واحتواء العرب فيها وهو الامر الاساسي ، اما الدولة فقد كان سهلا على الامة التي تتكون وتتوحد ان تجيد رسم شكل دولتها ونوع اجهزتها . وما حققه الرسول (ص) كان يشكل فقط انجازا لمهمة اولية قوامها انجاز عملية بناء الامة في الجزيرة العربية وتحويلها الى قاعدة لاكمال بقية المهام الستراتيجية لحركة التغيير العربي بتحرير الاراضي العربية المحتلة من الساسانيين والبيزنطيين في العراق والشام ومصر والمغرب وقد كان الرسول (ص) حريصا على ان يعلم اتباعه ان اي مرحلة يحققها ليست الهدف النهائي له وان جهادهم مرتبط بمستقبل متكامل واي تحقق يصبح ضمن هذا التوجه مجرد مرحلة تقود الى المستقبل لا تشذ الامة عنه ، على هذا الاساس تحددت مهام الخليفة الجديد بتأمين توظيف الوحدة المنجزة في سبيل التحرير للوصول الى الوحدة الشاملة . واذا كانت الوحدة الشاملة هي الهدف المركزي والستراتيجي الذي جاهد الرسول (ص) في سبيله فالتحرير هو الممر لهذه الوحدة ، وتثبت سلطة الامة في الجزيرة العربية هو نقطة الانطلاق في طريق التحرير . ومن هنا بدأ الخليفة جهوده التي انصبت على :

١ ـ تأكيد سياسة الرسول (ص) واستمرارها .

٢ ـ مواجهة الحركات الانشقاقية في الجزيرة العربية والتمسك بالوحدة المركزية .

٣ ـ الرد على حشود الروم وتهديدهم الحدود الشمالية للدولة .

أكد الخليفة ابو بكر وعيه لهذه المهام في خطبته في المسجد « اما بعد

أيها الناس ، فاني قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان احسنت فاعينوني ، وان اسات فقوموني ، الصدق امانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى اريح عليه حقه ان شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى اخذ الحق منه ان شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله الا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط الا عمهم الله بالبلاء ، اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله » (١) وتكتسب هذه الخطبة اهمية خاصة في نشوء السلطة في الدولة العربية لاعتبارين :

الاو ـ انها اول نص دنيوي يصدر عن رجل يخلف رسولا يوحى له .

الثاني ـ تحديدها سمة الحكم العربي بانه مركزي ديمقراطي محكوم بالمبادىء الاولى ورضا الامة .

اكد الخليفة التزامه سياسة الرسول (ص) في معظم خطبه واعماله التي قام بها وكانت اولى اعماله انفاذ حملة اسامة بن زيد الى الشمال وهي الحملة التي ضمت في صفوفها كل المسلمين الاول بقيادة اسامة بن زيد (١٨ سنة) ، وقد دار نقاش طويل بين الصحابة وظهر اتجاه قوي لتأجيل ارسال الحملة مستندا الى اوضاع الدولة وتفاقم الحركات الانشقاقية وبالتالي عدم وضوح مستقبل الدولة . غير ان الخليفة اصر على تسيير جيش اسامة رغم الضغوط التي تعرض لها وقد كان قراره حكيما حقق به عدة أمور جوهرية في مرحلتها تلك هي :

اولا ـ تأكيد استمرارية سياسة الرسول (ص) كما ظهر في أقواله « ما رددت جيشا انفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم . اتأمرني أن اكون أول حال عقدا عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ثانيا ـ تأكيده غلبة روح المبادىء والجهاد في سبيلها على الواقعية المجردة بعدما رأى مشاعر ضعف الثقة لدى بعض الصحابة وخوفه من ان

---

(١) سيرة بن هشام : ٢٢٨/٤

يغلب حب الدنيا على حب المبادىء وتحل الواقعية المجردة محل الثوريـــة .

ثالثـا – اظهر لمن ارتد ان المبادىء مستمرة وان الدولة قوية .

رابعـا – اظهر للروم استعداده لملاقاتهم وانه يأذنهم بحرب لا هوادة فيها(١)

خامسا – وهو المهم في تقديري ، حرصه على المحافظة على جـو الحماس القومي العام والوضع النفسي الايجابي الناجم عن تكون الدولة وتعزيز الثقة بان الوليد الجديد (الخلافة) لن يكون الا صـورة لقيادة الرسول (ص) .

محاربة الحركات الانشقاقية :

عندما توفي الرسول (ص) اعلن كل من مسليمة بن حبيب في اليمامـة والاسود العنسي في اليمن عن نفسيهما ورفعا لواء المعارضة ، وبدءا بالسيطرة على الاراضي في اقاليمهما كما اظهر بعض العرب حول المدينة معارضتهم ايضا ويمكن تصنيف الحركات الانشقاقية الى صنفين :

الاول : حركات اعلنت تمردها التام ورفضها سياسة الوحدة اطلاقا مثـل مسيلمة والاسود وهما حركتان عارضتا الرسول (ص) في أواخـر ايامه .

الثاني – حركات بقيت على الاسلام وقبلت بسياسة الوحدة غير انها تحللت من التزاماتها الاقتصادية تجاه الدولة (٢) .

لقد اعتبر الخليفة كلا نوعي الحركات الانشقاقية خارجا عن عقيدة الامة ودولتها وان موقف النوع الثاني من الانشقاقيين يجزىء الموقف العـام اولا ويتخذ لنفسه موقعا متميزا ثانيا فاذا قبل الخليفة تحللهم مـن التبعـات الاقتصادية فمعنى هذا انه اقر لهم موقعا خاصا في اتفاق معلن وهـذا خلل بفلسفة البناء الاجتماعي السياسي والاقتصادي والثقافي للامة وانه يقود الى

---

(١) سيرة بن هشام : ٢٧٢/٢

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ١١٣

معارضة نهائية مستقبلا ، لذلك اعتبر الجميع موضع مجابهة مع الدولة وتحرك على هذا الاساس وكانت خطته في المجابهة شاملة ففي حين توجه لمقاتلة الانشقاقيين حول المدينة سير جيش الدولة بقيادة خالد بن الوليد الى بقية الحركات الانشقاقية .

استخدم الخليفة سياسة المباغتة بالقسوة فاحرق بعض قادة الانشقاقيين(١) وفرض على الاخرين سياسة الحرب المجلية والسلم المخزية فاما الحرب المجلية فتعني اجلاء الانشقاقيين من اراضيهم وديارهم واما السلم المخزية فتعني :

١ ـ نزع الحلقة والكراع اي القوة الحربية .

٢ ـ مصادرة الاموال .

٣ ـ تعويض الدولة عن خسائرها وقتلاها .

٤ ـ الاقرار بان قتلى الانشقاقيين في النار(٢) .

استطاع خالد ان يصفي الانشقاقيين باتجاه الشمال والشرق وصولا الى اليمامة ومن ثم الانتصار على مسليمة في معركة عقيرباء ومصالحة اهل اليمامة بينما تفرغ عمال الخليفة في اليمن لمعالجة الاسود بن تبعهم من أهل اليمن ممن امن وبقي على ولاءه للدولة وبهذا انتهت الحركات الانشقاقية وتحقق للدولة :

١ ـ تثبيت الوحدة السياسية والقضاء على الانشقاقيين وحركات المعارضة الاخرى .

٢ ـ تدريب جيوش الدولة على الحركا تالواسعة والمجابهة المستمرة .

٣ ـ التفرغ لاكمال سياسة الرسول (ص) .

حرب التحرير :

نجحت الخلافة في القضاء على حركات الردة في الجزيرة العربية وقد افادت من ذلك فوائد متعددة في مقدمتها انها اصبحت تمتلك قوات عسكرية

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ١١٧

(٢) ن.م : ١١٣ ، ١١٤

مدربة وكاملة الاستعداد نفسيا وقتاليا تعرف قيمة النظام وتدرك اهمية الطاعة كما انها ثبتت الوحدة السياسية وركزت السلطة المركزية وضمنت سيادة المثل القومية على كل الجزيرة « فالعرب اليوم بنو ام واب وقد رأيت ان استنفر المسلمين الى جهاد الروم بالشام» (١)،ولم تتأخر الخلافةفي تنفيذ الخطوات اللازمة لتحرير الاراضي العربية فارسلت الجيوش ، واشرفت على الحركات العسكرية ضد القوى الاجنبية المسيطرة عليها وقد كان واضحا ان الخليفة ابا بكر الصديق انما يكمل الستراتيجية التي وضعها الرسول (ص) وقد طرح ذلك في خطبته في المسلمين حيث قال :

« واعلموا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول ان يصرف همته الى الشام فقبضه الله اليه واختار له ما لديه ، الا واني عازم ان أوجه ابطال المسلمين الى الشام باهلهم ومالهم ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم انباني بذلك قبل موته » (١) .

ويأتي اهتمام الخلافة بالشام واعطاءها هذه الاولوية لعوامل ستراتيجية تتعلق بقرب الروم من قاعدة الدولة واكمالهم التحشد العسكري الذى بداوه منذ ايام الرسول (ص) الاخيرة ولانهم في بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين يتحكمون في عقدة المواصلات الى مصر والعراق وان اي تحرك باحد الاتجاهين يبقى مهددا بقطع خط الرجعة ما لم تتم السيطرة على عقد المواصلات وطرد العدو ، لذلك نجد الخليفة ابا بكر يأمر خالد بن الوليد بالاتجاه الى الشام وترك جبهة العراق لعمليات المثنى بن حارثة الشيباني ، كذلك نجده يدفع المزيد من القوات العسكرية من المدينة الى الشام وبخاصة تلك التي لها خلفية عسكرية ومعظمها من اليمن وبعد مناوشات متعددة وفي جبهات متعددة افاد المقاتلون منها في استكشاف طبيعة عدوهم في القتال وفنونه في الحرب وتكيفوا نفسيا للمجابهة ومن ثم نجح العرب ان يسحبوا الروم الى الميدان الذى يريدونه

---

(١) ابن عساكر : ١٢٦/١ رواية الزهرى عن تامير الخليفة للجيوش الى الشام

(١) الواقدى : فتوح الشام ، ٢/١

(اليرموك) والانقضاض عليهم وابادة قوتهم الرئيسة حتى انهم لم يبق لهم ما يمكنهم من الوقوف بوجه الزحف العربي الى دمشق او حمص .

اصبح العرب بعد هذا الانتصار الستراتيجي الحاسم مسيطرين على خطوط المواصلات وامكنهم الانتشار بسهولة باتجاه الجناحين فانفصل هاشم بن عتبة بجيش من الشام وانطلق الى العراق ليلتحق بسعد بن أبي وقاص ويسهم في نصر ستراتيجي اخر في معركة القادسية يفرض على الفرس الانسحاب من العراق وبالتالي تشتيتهم واسقاط دولتهم . بينما فصل عمر بن العاص بجيش الى القدس ليحررها ويواصل تقدمه نحو مصر طاردا الروم حتى حدود برقة ، أما اكمال تحرير المغرب فقد تم فيما بعد سنة ٧٩ هـ عندما ارسى القائد العربي موسى بن نصير اسس التحرير وطرد الروم وقام بتوطيد السلطة العربية .

لقد اظهر المقاتلون العرب مقدرة قتالية عالية ساهمت في كسبهم الحرب غير ان العامل الحقيقي الذي لعب دورا رئيسا في كسب المعركة هو درجة التفتح الروحي وتأجيج الوعي القومي باهمية تحرير الاجزاء المغتصبة من الوطن العربي وعبروا عن هذا الوعي بمظاهر متعددة :

اولا - انهم كانوا يعلمون ان الاراضي المحتلة هي أراضيهم وانهم انما يمارسون عملية استرجاع لحق سابق ، لذلك اطلقوا على القادسية يوم العروبة فقد قال جرير(١)

وادركوا الوتر من كسرى ومعشره

يوم العروبة وتر الحي شيبان

ثانيا - اظهروا تعلقا فريدا بالارض فالمقاتله الذين خرجوا الى حرب التحرير وهي لما تتضح بعد طبيعتها ولا نتائجها ومعهم نساؤهم واطفالهم وذراريهم انما يعبرون عن وعي قومي باهمية تحرير الارض .

---

(١) الكوفي : كتاب الفتوح ، ١/٢٧٤

ثالثـا ـ اعتبارهم التحرير مسألة لا رجوع عنها فاما الموت او التحرير وفي كلتا الحالتين ربح ، والموت اكثر ربحا ففيه الشهادة والجنة لذلك لم يكن غريبا ان نراهم في بدء كل معركة يبايعون على الموت ، ويعبر طلحة بن خويلد الاسدى عن هذا الشعور عندما قال : « والله لو لم يكن دين الا العربية ما كنت لاجزر العجم الطماطم هذه العرب العاربة » (١) .

رابعـا ـ انهم كانوا يشعرون بالمسؤولية اتجاه عرب الاراضي المحتلة وعبر هذا الشعور عن نفسه في الاهتمام بحركات المثنى وهو لم يسلم بعد

خامسا ـ كان عرب الاراضي المحتلة يدركون واجبهم في النضال من اجـــل تحرير أراضيهم لذلك سارعوا الى خوض غمار الكفاح في وقـــت مبكر كما حدث في العراق عندما قاد المثنى بن حارثة الشيبانـي وقطبة بن قتاده السدوسي العـرب في حربهـم ضد الفرس أو في الشام حيث كان العرب يلعبون دور الكشافين في مقدمة الجيش العربي وكانوا يرصدون حركات العدو ويقومون بدور البريـــد العسكرى ويهاجمون خلف خطوط العدو . أما في تحرير مصـر فقد انضمت راشدة باكملها لجيش التحرير وكانـــوا يدركون ان قتالهم حمية قومية للعرب رغم اختلاف دينهم عنهم(٢) .

سادسا ـ الوعي بالحدود الجغرافية والبشرية والثقافية للوطن العربي ويتضح هذا في قول الخليفة عمر عن الفرس بعد اكمـال تحـرير العراق : « وددت لو أن بيني وبينهم جبلا من نار » ، كذلك قول عقبة بن نافع مخاطبا المحيط الاطلسي : « والله أيها البحر لو عرفت أن لي بعدك ارضا لخضتك بجوادي » .

---

(١) تاريخ الطبرى : ١٢٨/٤

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ، ٢٦١ قاتل ابو زيد الطائي حمية للمسلمـين وكان نصرانيا .

الفصل الثاني

بناء الدولة العربية

١ ـ بناء مؤسسة الدولة

٢ ـ فلسفة بناء الدولة

٣ ـ تطور الاوضاع الاجتماعية في اواخر عهد عمر بن الخطاب

بنـــاء الدولـــة العربيـــة

١ ـ بناء مؤسسة الدولة :

تركزت جهود الرسول (ص) على بناء الامة العربية وتكوين وعي عام بها وبخصائصها وبعقيدتها الانسانية ، واستطاع بما يتمتع به من مزايا قيادية قدسية لسيير الامور بشكل مباشر حتى تحرير مكة ، غير انه اضطر للاستعانة بمن يساعده من الصحابة خاصة في المناطق البعيدة عن المدينة ، ولما كانت الاطراف البعيدة عن المدينة حديثة عهد بسياسته ، وقد دخلت في الدين الجديد في وقت متاخر ولما تتفقه فيه أو يكتمل ايمانها ، فقد كانت حاجته الى من يطبق سياسته ويعلمهم القرآن واحكام الدين ومبادىء الدولة الجديدة ويجمع الصدقة(١) ، وهذا يفسر عدم أجراءه اية تغييرات في أوضاع القبائل او المناطق باستثناء بعض التغييرات الطفيفة ، وحتى اولئك الصحابة الذين سماهم الرواة عمالا له في مكة وحضرموت واليمن وعمان والبحرين كانوا مسؤولين عن تطبيق سياسته في المناطق التي ذهبوا اليها ، ولم يكونوا عمالا بالمعنى الادراي أو السياسي خاصة في المناطق التي فيها اوضاع غير طبيعية ، ولما توفي الرسول (ص) اختلفت الاوضاع فخليفته ابو بكر الصديق رجل ليس الا ، صحيح انه يستند الى نفس المبادىء غير انه ليس كالرسول (ص) وهذا يكفي لان نفترض حدوث اختلافات جوهرية ، اكدها الخليفة نفسه في خطبته « اني قد وليت عليكم ولست بخيركم » اذن هو احد الجماعة وفضله يتلخص في انه انتدب خليفة وان له سبقا في الاسلام ، وان قيادة الدولة سوف تبتعد عن طابعها السابق وتتجه الى الواقعية بمعنى الممارسة الدنيوية للسياسة ، فهي تعتمد بشكل مباشر على رضاهم والخليفة بحاجة الى تعاونهم معه لتسيير أمور الدولة لهذا حرص على أن يؤكد جوهر سياسته وسمتها الاساسية وهي الديمقراطية التي تعتمد على المشاورة ، غير أن ديمقراطيته كانت منطلقة من

---

(١) تاريخ الخميس : ٢/٢٠٢

تمسك شديد ودقيق بفلسفة مركزية في ادارة الدولة وقيادتها أقرب الى المركزية الديمقراطية ، وباستثناء هذا المبدأ فان الخليفة لم يجراية تغييرات جوهرية وحتى رجاله كان معظمهم تقريبا ممن استخدم في عهد الرسول (ص) .

واجهت الدولة احداثا انشقاقية وردات ازدادت حدتها بعد وفاة الرسول (ص) وجعلت مهمة تثبيت السلطة السياسية للامة والدولة هي المهمة الاساسية ، ولقد نجح الخليفة في القضاء على الحركات الانشقاقية والمرتدة لصالح المباديء والدولة ، غير ان اخضاع المرتدين لم يكن يعني انهم اصبحوا موضع ثقة الدولة او رضاها بعد ما تسببوا به من مشاكل وهو امر طبيعي فاستسلامهم لم يكن يعني اسلامهم او ايمانهم بالمباديء(١) لذلك نجد الخليفة يفرض عليهم العزل الاجتماعي والسياسي ولا يستخدمهم في الامور الرئيسية كحروب التحرير مثلا ، ومع اتساع نطاق عمليات التحرير وضرورة تنظيمها ظهرت الحاجة الى مزيد من المقاتلة ، وظهرت الحاجة الى شكل من اشكال العلاقة بالاراضي المحررة يستوعب المستوى الجديد من التطور الاجتماعي والاقتصادي فيها ، غير ان الخلافة بالمقابل كانت مطالبة بايجاد حل للاوضاع الناجمة عن الردة حلا ليس استخداميا انما اندماجيا ، ونقل مفهوم الامة والمباديء الاساسية للدين والمقاييس الاجتماعية الجديدة الى التطبيق الفعلي في الواقع في شكل دولة لذلك عندما ولي الخلافة الخليفة عمر بن الخطاب باشر مهمة بناء الدولة مستخدما المشاركة في حروب التحرير صيغة لاحتواء العرب كلهم في الامة الجديدة واساسا في عملية بناء الدولة الجديدة .

فلسفة بناء الدولة :

كان مفهوم عمر للدولة يستند الى الايمان بوحدة الامة وعقيدتها لذلك حرص في بناء الدولة ان تكون دولة الامة والعقيدة في جميع مفاصلها . واذا كان مفهوم الامة قد استقر منذ عهد الرسول (ص) وهو في طور احتواء العرب ، فان بعض جوانبه كانت تحتاج الى انضاج اكثر خاصة بعد حركة الارتداد التي قام

(١) تاريخ الخميس ٢/٢٠٦ .

بها بعض انصار القديم أولا وضرورة استيعاب الدولة مفهوم الامة ومبادئهـــا وتحويل هذه المبادىء الى سياسة وتقاليد وكانت خطة عمر في انضاج مفهوم الامة على النحو التالي :

١ ـ تحسين الموقف الاجتماعي للمرتدين بأستخدامهم في مهام الدولة (حروب التحرير) والانتقال بهم من خلال ممارسة الجهاد والتفاعل مع سياســـة الدولة في المجالات الاخرى من الاستخدام الى الاندماج ، فالجهاد في فلسفة الدولة وعند عمر بالذات كان محاولة لوضع القبائل العربية في حالة حمل لرسالة الامة ومن ثم أحتواء تلك القبائل ، لذلك نجد الخليفة يستخدم هذه القبائل على نطاق واسع في حروب التحرير في العراق ومن ثم يوصي بهم للذى ياتي من بعده في وصيته المشهورة « اوصيه بالاعراب خيرا فانهم اصلُ العرب ومادة الاسلام » (١) .

٢ ـ اخراج الاديان من جزيرة العرب . لا شك ان مفهوم الامة كما ارسي في عهد الرسول كان يقوم على أساس أمة العقيدة (٢) ، على هذا الاساس كان الخليفة يرى أن ابقاء الجزيرة وهى البؤرة الستراتيجية لدولــة الوحدة تحوي فيما تحوي أناسا يدينون بغير عقيدة الامة ، اخـلال بمفهوم الامة وضرورات البناء الستراتيجي لدولتها، على هذا الاساس اتخذ قراره باجلاء الاديان من الجزيرة (لا يجتمع ببلاد العرب دينان) فاخرج اهل نجران واسكنهم نجران الكوفة واخراج أهل خيبر كذلك (٣) .

٣ ـ وضع التقويم العربي ، تقويما قوميا للعرب مبتدئا بهجرة الرسول (ص) من مكة الى يثرب لانها مثلت بالنسبة للامة بداية المستقبل الذي تتطـلع له ، فقال عمر « الهجرة فرقت بين الحق والباطل فارخوا بها»(٤) ويعكس

---

(١) طبقات بن سعد : ٢٤٣/١/٣ ، ٢٤٦ .

(٢) انظر صفحة ٢٩ وراجع وثيقة المدينة ص ١٠١ وانظر ايضا طبقات بن سعد ٢٠٣/١/٣ .

(٣) تاريخ الطبري : ١١٢/٤ .

(٤) روزنثال : ٥٠٩ كتاب السخاوي .

الحوار بين الصحابة في محاولتهم اختيار مبتدأ للتاريخ وتداولهم في التقاويم الشائعة ورفضهم لها واستقرارهم على التقويم الهجري ، وعياً بالتميز القومي للامة(١)، الى جانب هذه الاسس العامة لانضاج مفهوم الامة بدات تطبيقات عمر لتنفيذ هذه الفلسفة في جانبين اساسيين :

اولا : الجانب الاول يتعلق بالبناء الاداري للدولة والذي نفذ بالخطوات التالية :

١ ـ تمصير الامصار ، اي تقسيم الدولة الى وحدات ادارية كبرى وفي عهده كانت هذه الوحدات هي : (المدينة والبحرين والبصرة والكوفة والشام ومصر والجزيرة) (٢) وتحديد وظائفها الادارية (العامل ، القاضى ، صاحب الخراج) .

٢ ـ تدوين الديوان ، اي تسجيل المقاتلة وتنظيماتهم ورواتبهم ، فقد اتخذ الخليفة لقب امير المؤمنين وهو لقب يجمع بين عقيدة الامة (المؤمنين) وبين الطبيعة العسكرية (امير)وبموجبه اصبحت الامة باكملها جيشا والخليفة قائدها فهذا اللقب يعني ان الخلافة اعلنت التعبئة الاجتماعية العامة .

٣ ـ فرض العطاء وهو مقدار الراتب الذي يدفع للمسلم ، وقد اتبع عمر في العطاء تقاليد المبادىء مقياسا لتقييم المؤمنين .

« الرجل وقدمه في الاسلام الرجل وبلاؤه في الاسلام ، الرجل وغناه في الاسلام والرجل وحاجته » .

ثانيا : رسم السياسة الاقتصادية للدولة .

١ ـ البناء الاداري للدولة .

كانت مؤسسة الدولة في نظر عمر الوسيلة الاجدى للوصول الى احتواء الامة في الجزيرة العربية والاراضي المحررة احتواء عقائديا تاما ، لانه اعتبر الدولة البناء المادى للامة ، ولما كانت الامة ازاء مهام استراتيجية لم تنجز بشكل تام فقد

---

(١) ن٠م : ٥١٣ ، ابن عساكر ، ١/٢٢ .

(٢) طبقات بن سعد : ٢٠٢/١/٣ .

اعتمد في بناء الدولة الجديدة من خلال انجاز الامة مهامها الستراتيجية وتحددت علاقة المؤمن بالدولة من خلال «الجهاد» الذي هو عملية وضع العرب في حمل دائم لرسالة الامة بحيث يتجاوزون قبليتهم ، وبما ان الانسان المقاتل له حقوق وان حركة الحياة اليومية تهدف الى الارتقاء به فقد أصبحت الدولة مسؤولة عن تأمين معيشته ، فوضع لهذا الفرض نظام الرواتب ، وهذا النظام اعطى للانسان العربي شعورا بالاطمئنان الى الحياة والاستقرار فهو لاول مرة يمتلك موردا دائما يحصل عليه من خلال علاقات وممارسات ترتبط باكملها بمصلحة عليــا وحركة كونية شاملة ، لا القتال ولا الغزو من اجل العيش كما كان يفعل قبل الاسلام ، وان المنظم لحياته اليومية دولة لها عقيدة وبقدار استقرار الدولة وانتشار عقيدتها وتحقيق اهدافها تستمر الحياة الجديدة والعكس صحيح ، وقد ادرك الخليفة خطورة ودقة هذه المعادلة واحتمال تحويل الدولة الى طرف متسلط تستغل هذه العلاقة لمصلحتها لذلك وضع الخليفة نظاما دقيقا لشكل عملها وعلاقته بالمواطن . فهذه الدولة تقوم على اللامركزية في انجاز الهدف العام لها وان العامل يمارس هذه السياسة في ولايته محكوما بمشورة المسلمين الاول في ولايته والخليفة الذي يشرف على تنفيذ السياسة العليا للدولة هو الاخر محكوم بمشورة المسلمين الاول في مركز خلافته ، لان الخليفة الذي هو راس السلطة محكوم برضا الامة . فالدولة اذن تخدم الامة ولا تستعلي عليها « ان الناس لم يزالوا مستقيمين ما استقامت لهم ايمتهم وهداتهم» «الرعية مؤدية الىالامام ما أدى الامام الى الله فاذا ارتع الامام ارتعوا » ، لذلك كان التركيز على مبدا الخدمة العامة من خلال المنصب « ولا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تحرموهم فتكفروهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم » . «ايها الناس اني لم ابعث عمالي عليكم ليصيبوا ابشاركم ولا من اموالكم انما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم » (١) .

ومن هذا المنطلق فرض على عماله في اجهزة الدولة القيود التي تحصنهم ضد الخطأ لكي تبقى الدولة محصنة ، ولتبقى مرآة يرى فيه المؤمن وجه عقيدته

---

(١) طبقات بن سعد : ١٩٠/١/٣ و ..

فلا ينقلب عليها ، فأمر عماله ان يكتبوا اموالهم وكان يدقق ذلك سـنويا فاذا اكتشفت أمرا شاطرهم فيأموالهم (١)، واعتبر نقد الرعيةللسلطة ورقابتها عليها أمرا اساسيا في الحصانة « أحب الناس الى من رفع الى عيوبي » (٢) .

ويروي عن عمر ان رجلا قال له : اتق ا' فنهره رجل من المسلمين فقال عمر : دعه فليقلها لى ، نعم ما قال ، لا خير فيكم اذا لم تقولوها ، ولا خير فينا اذا لم نقبلها (٣) .

ان وضع نظام العسس (الحراس الليليون) وانشاء دار للدقيق وتأمين الغذاء للسكان وتكفل الدولة بغذاء الاطفال وبناء دور ومحطات استراحة وتزود على الطرق وتفقد أحوال الناس والمشاركة الوجدانية للجماهير امور كانت ذات تأثير مباشر في نفوس الناس وأنها مع تلك الاعمال الكبيرة الاخرىنجحت فيارساء أسس الدولة والارتقاء بالمجتمع الى نوع من الشعور بالمسؤولية الاجتماعية ساعد كثيرا على تعزيز الوحدة الاجتماعية للأمة .

لقد كان التركيز على العدل والديمقراطية وخدمةالامة منالامورالجوهريةالتي صفرتأمامها السلطة نفسها، فبهذه الوسائل يصل الانسان الىدرجة عالية من الشعور بالمسؤولية اتجاه الامة تجعله انسانا يعيش لاجلها وبمثلها يضع نفسه دائما في النضال لاجلها لا منافسا لها . صعد عمر المنبر وقال : ايها الناس لقد رايتني ومالي من اكال ياكله الناس الا ان لي خالات من بني مخزوم فكنت استعذب لهن الماء فيقبضن لي القبضات من الزبيب ثم نزل فقيل له : ما أردت الى هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : اني وجدت في نفسي شيئا فأردت أن اطاطىء منهـا (٤) .

وقد حذا عمر حذو الرسول (ص) وابي بكر في الابقاء على بعض الاوضاع القبلية التي كان متعارفا عليها والتي لم تتعارض معمباديء الاسلام. كما راعى

---

(٢) ن٠م ٠

(٣) ن٠م ٠

(٣) طبقات بن سعد ١/٣/١٩٠ و ٠

(٤) طبقات بن سعد ٣/١/١٩٠ و ٠

بعض الاعتبارات التي املتها ظروف حروب التحرير خاصة تلك التي تتعلق بالقبائل المشاركة في الحرب اما بعد ان انجزت المرحلة المعقـــدة في حروب التحرير واندماج مصر والشام والعراق بدولة الوحدة فقد أصبحت الاوضاع ناضجة باتجاه اجراء التنظيمـــات التي ترسي أسس الدولة العقـائدية وتلغي الاعتبارات القديمة (١) .

كان تدوين الديوان وفرض العطاء أولى الخطوات على هذا الطريق فقد حدد الديوان طبيعة نظام المؤسسـة الجـــديدة ، بينما حـدد العطـاء المقاييس الاجتماعية التي تحدد مكانة الفرد في المجتمع وكل من المقاييس المثبتة في الديوان أو العطاء وضعت على أساس الاسبقية في الانتماء الى العقيدة والجهد المبذول في خدمتها . ثم جاءت بقية الاعمال كوضع تقويم قومي للدولة حدد بدايته بالهجرة الى المدينة ، وتمصير الامصار وتقسيم الدولة الاداري وتحديد واجبات اداريها

ان فلسفة الدولة عند الخليفة عمر تعتمد على مقدار ضبط التوازن بين ايمان الفرد بالامة ومبادئها وبين حرص الدولة على ضمان حياته وتهيئة فرص الحياة الحرة الكريمة المستقرة وضمان سير الظرفين الزماني والمكاني نحو التقدم فاستمرار أحد طرفي المعادلة بشكله الصحيح يتوقف على استمرار موقفه من الطرف الاخر بشكل صحيح أيضا . اما بقية أعمال الخليفة فقد أخذت طابع تعزيز الاتجاهات الانسانية في فلسفة الدولة ، فهي على مستوى الانسان تعني تعزيز روحية الانسـان الجديد ، والوصول بقدراته الى مستوى جديد من الابداع وعلى مستوى الدولة كان الهدف منها ابقاء الدولة وجها ناصعا يرى الفرد فيه نفسـه ويرى مبادئه وينشد لها .

لقد حرص الخليفة على حفظ التوازن بدقة فلم يتساهل ازاء اي تصرف يخل بالمعادلة وكانت ابرز وسائـــله في حفظ التـوازن التأكيـد على المركـزية الديمقراطية في ادارة الدولة وتطبيقها ضمن حلقات متداخلة تبدا بالمصر وتنتهي بالمدينة ، وكان المسلمون في المصر هم القاعدة الاجتماعية للعلاقة الديمقراطية ، فلقد اتاحت حروب التحرير ومشاركة الصحابة فيها ان يستقر بعضـــــهم في

---

(١) الحديثي : نزار عبد اللطيف ، أهل اليمين في صدر الاسلام ، ص، ١٤٦ــ ــ ١٤٧ .

الامصار التي مصرت بعد التحرير وقد شكلوا اشبه ما يكون بالمستشارين للوالي دونما حاجة لصفة رسمية انما تقديرا لمنزلتهم الدينية ، فهم صحابة الرسول (ص) الذين عاصروه وناضلوا معه وتحملوا عبءالبناء الجديد وشاهدوا كل اعماله وسمعوا اقواله فهم اكثر استيعابا لمباديء الدين ، لذلك احتلوا موقعا متقدما في مجتمع الامصار وفي حركة الدولة ، وكانت هذه الديمقراطية تمارس في دار الخلافة والمسجد وحينما تصل الى نقطة اختناق تتجاوز المسافات الى المدينة فيتدخل الخليفة الذي كان موقفه باستمرار لصالح الامة مهما حسنت نوايا الدولة .

لقد ادت هذه الاعمال وضمن هذا المنظور الى استقرار الدولة فالمواطنون يعرفون ما يترتب عليهم من واجبات وما لهم من حقوق ، وأمامهم فرص الحياة والعمل مؤمنة ، فالشعور بالمسؤولية الفردية والاجتماعية كان كبيرا ، تمثل في التضامن الاجتماعي والحرص على الدولة واموالها والحرص على تطبيق مبادئها وسياستها .

٢ ـ السياسة الاقتصادية :

منطلقات الفلسفة الاقتصادية :

حدد القرآن الكريم الاساس النظري للسياسة الاقتصادية « لله ملك السموات والارض وما بينهما » (١) فكل ما في الارض ملك لله ، ليس للناس حق قطعي في امتلاكه ، وعلاقتهم به علاقة انتفاع ، وقد اكد هذا الاتجاه في (٤٢) آية اخرى ، وان هذا الانتفاع يقوم على اساس العمل ، ويعتبر التأكيد على العمل واحدا من ابرز الاتجاهات التي شدد عليها القرآن الكريم (٢) والعمل في جوهره اساسي في رفعة الانسان وتقدمه وسعادته وفي اكتمال انسانيته . وهذا العمل تعاوني والملكية ملكية انتفاعغير ان ملكية الانسان لاتتيح له الظلم «فلكم رؤوس

---

(١) المائدة : ١٧٨ .

(٢) ورد في : ٣٦٠ آية بصيغ متعددة .

اموالكم لا تظلمون ولا تظلمون»(١) ولا يحق لهكنز الاموال واحتكارها(٢)ولاتعاطي الربا ..

وقد اكد الرسول (ص) هذه الفلسفة في المدينة عندما باشر بناء المجتمع الجديد ، فقد وضع المؤاخاة بين المهاجرين والانصار ليشد ازر بعضهم ببعض(٣) وكانت المؤاخاة شاملة في الملكية والعمل وامتدات الى نواح اجتماعية . « أخي رسول الله (ص) بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع فقال سعد لعبد الرحمن « اني أكثر الانصار مالا فاقسم مالي نصفين ولي امراتان فانظر اعجبهما اليك فسمها لي اطلقها فاذا انقضت عدتها فتزوجها » (٤) .

وفي وثيقة المدينة حددت سمة مجتمع المؤمنين بانهم « امة واحدة من دون الناس» يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين» «وان المؤمنين لا يتركون مفرحا بينهم ان يعطوه بالمعروف في فداء او عقل » .

وان المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس (٥) .

الموارد المالية :

لم تكن للمسلمين موارد مالية عند الهجرة للمدينة الا ما كان من المؤاخاة والعمل الحر بالتجارة ويبدو ان دورهم التجاري برز سريعا فسوق المدينة الذي عند المسجد نشأ من تجارة المسلمين المهاجرين ولكن ذلك لم يكن مما يساعد على حل مشاكلهم الاقتصادية وفي بدر قسمت الغنائم «واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل»(٦)

وفي سنة ٣هـ فرضت زكاة الفطر ثم زكاة الاموال ويلاحظ الاتجاه الى الاشتراك في فرص الحياة المتاحة بالتاكيد المستمر على الزكاة ولو باقل ما يمكن

---

(١) البقرة : ٢٤٠.
(٢) التوبة : ٣٤٠ .
(٣) سيرة بن هشام : ٢/٤١ - ٢٤٢ .
(٤) صحيح البخاري ٣٩/٥ .
(٥) سيرة بن هشام : ٢٥٢/٢ .
(٦) الانفال : ٤١ .

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم »(١) . وفي سنة ٩هـ حددت أبواب صرف الصدقة «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها»(٢) وبعد هذا التاريخ بدأ الرسول (ص) يرسل عماله الى المناطق التي آمنت به يجمعون الصدقة وكان المبدأ المعمول به ان الصدقة تصرف في مكانها تؤخذ من اغنيائهم وترد على فقرائهم (٣) .

ولم تكن الصدقة موردا كبيرا فقد فرضت على ما بلغ وزنه ٥ اواق ، او ما يقابلها من أوزان كذلك على ما بلغ ٥ ابل (٤) وكانت سلعية على الاغلب واذا فاضت عن حاجة اهلها اخذت مما يحتاجه المسلمون في المدينة من بضائع فقد اخذ معاذ من اليمن الثياب لحاجة اهل المدينة لها (٥) وليست لدينا معلومات دقيقة عن مقادير الصدقة التي تجمعت ولا عن مقدار ما وصل المدينة منها . ثم فرضت الجزية وحددت مقاديرها عندما صالح الرسول (ص) اهل نجران . وهكذا كان الحال ايام الخلفاء الراشدين ومع ان المسلمين عمروا الاراضي البور في المدينة واستصلحوها وزرعوها الا ان الانتاج الاقتصادي عموما لم يكن جيدا فقد استثقل العرب الصدقات وارتدوا بسببها وقد يكون موقفهم تعبيرا عن معارضة سياسية غير ان النص على الصدقة يجعلنا نعتقد بأنهم لم يكونوا في وضع اقتصادي جيد .

غير ان تحرير العراق والشام ومصر اضاف الى الدولة في البداية موردا مهما هو الغنائم التي غنموها من الدولة والطبقة الحاكمة فيها ثم ما انضاف لها من جزية والاهم من هذا هو ان العراق والشام ومصر نقلت الاقتصاد العربي من طابعه السلعي التبادلي الى طابع انتاجي دائم فالاراضي المحررة اراض ذات نمط اقتصادي متطور ومتعدد ، التعامل فيه بالنقود ، وقد استلزم هذا الامر في

---

(١) التوبة : ١٠٣ .

(٢) التوبة : ٦٠ .

(٣) صحيح البخاري ٢/١٣٠ .

(٤) ٢/١٣٣ ، ١٤٦ .

(٥) ن.م : ١٤٤ .

البداية تأسيس بيت تجمع فيه الاموال ، وترتب على ذلك وضع الديوان وتحديد الاعطيات (الرواتب) ويظهر لنا سلم الرواتب ضخامة الاموال وهي بالتأكيد مسالة ساهمت فيها اضافة الى الخمس والجزية والصدقة غنائم المعارك وواردات الخراج على الاراضي الزراعية والعشور على أراضي المسلمين وعشور التجارة .

السياسة الاقتصادية كما حددتها تنظيمات عمر :

اكد عمر مبدأ الانتفاع من الارض ورفض التمليك لذلك استمر الخراج أو العشور على الاراضي الزراعية وكان من مبررات قراره في عدم تمليك أراضي الدولة خوفا ان يمتلكها جيل فيأتي جيل من الامة ليس له أرض فيفقد انتماءه ويستند قرار الخليفة الى فهمه لمبدأ ديني جوهري يعتبر الارض لله لا تملك وانما ينتفع منها .

اما في الرواتب فلم يسر عمر على مبدأ ابي بكر في المساواة انما اعتمد مقاييس في تحديد سلم الرواتب وضمها بقوله مخاطبا بيت المال : ما من الناس أحد الا له في هذا المال حق اعطيه أو امنعه ، وما من احد أحق به من أحد الا عبد مملوك ، وما انا فيه الا كأحدهم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم : فالرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه في الاسلام والرجل وحاجته .

واغلب الظن ان الخليفة اراد بهذه السياسة أن يخضع الدولة لصيغ المباديء لذلك حرص ان يضع أصحاب المباديء من الاولين في اعلى السلم المالي فهم الطليعة التي ناضلت وهاجرت وضحت وتحملت الكثير ، غير انه أراد ان يبرز المبدأ الجديد الذي تفرزه مرحلة الانتصار وهو العمل على رفعة الدولة وازدهارها وتقدمها لذلك يضع المقياس الاخر (الرجل وبلاؤه في الاسلام) باعتباره المقياس المعبر عن الولاء للمباديء في مرحلة البناء .

يبدو ان هذه السياسة كانت مرحلية فرضتها مرحلة الانتقال من النضال من أجل تحقيق المرحلة الاساسية في استراتيجية الرسول (ص) الى المرحلة الثانية حيث تتلازم عملية انجاز بقية المهام الستراتيجية مع عملية بناء الدولة ،

يتضح هذا الاتجاه في ما بداه عمر على مستوى السياسة المستقبلية وتتمثل فيما يلي :

اولا ـ اجراء مسح اقتصادي شامل للدولة ووضع خارطة اقتصادية لها .

ثانيا ـ تطوير الانتاج خاصة الزراعي على اساس :

١ ـ اصلاح شؤون الفلاحين وتحسين اوضاعهم الاجتماعية والقانونية وتغيير علاقاتهم بالدولة والارض ورفع الحيف عنهم .

٢ ـ تطوير واردات الدولة من الزراعة بتنظيم العملية الزراعية .

بدأ العمل في الاتجاهات اعلاه مجتمعة وقام اثنان من الصحابة العظام بمسح السواد وهما حذيفه بن اليمان وعثمان بن حنيف(١) غير اننا لا نعلم ما اذا كان انجز ما يتعلق ببقية اراضي الدولة ام لا وعلى الاغلب انه لم ينجز ذلك .

تطور الاوضاع الاجتماعية في اواخر عهد عمر بن الخطاب :

ادى انجاز عملية تحرير العراق والشام ومصر الى احداث تغييرات جوهرية في الحياة الاجتماعية سياسيا وثقافيا واقتصاديا ، فالاراضي العربية المحررة تختلف عن الجزيرة العربية في انها مناطق نشاط اقتصادي متنوع وواسع ، اضافة الى تنوعها الاجتماعي ، فهذه الاراضي وبسبب طول فترة الاحتلال الاجنبي كانت خليطا اجتماعيا ، العرب ليسوا اكثرية متفوقة فيه . وادى هذا التنوع الى تراكم ثقافي وحضاري متنوع ايضا .

لقد ادت هذه الامور مجتمعة اضافة الى الطبيعة النامية للدولة الجديدة الى تطور مؤسسة الدولة بشكل سريع وقد استطاع الخليفة عمر في السنوات العشر التي تمثل حكمه ان يرسي البناء الاداري للدولة ويثبت التقاليد التي ارساها الرسول (ص) وطورها الخليفة ابو بكر ، كما انجز وبشكل رائع بناء الجيش وتأسيس نواة اقتصاد جديد للدولة يعكس عقيدتها ويستوعب ظروفها الاجتماعية وواقعها الاقتصادي ، واشر لحد ما الاتجاه الفكري للدولة بتركيزه الشديد على القرآن ومنعه تداول اي كتاب آخر او مصدر فكري الى جانبه . وكان واضحا من سياسة الخليفة انه يريد ان يجعل في فلسفة وسياسة الدولة حيزا كبيرا من الاهتمام باولئك المناضلين الاول الذين عاشوا المعاناة الاولى للتغيير

---

(١) صحيح البخاري : ٦٩/٥ .

الثوري ورافقوا نمو المبادىء وناضلوا من اجل انتصارها عندما ربط جوهر سياسته (القيمة الاجتماعية والاجر) بالمبادىء فجعل المواطنين مراتب حسب الاولوية التالية :

١ ـ المسلمين الاول « وفي مقدمتهم آل بيت الرسول » (ص) .

٢ ـ ذوى البلاء والجهد الاستثنائي في النضال من اجل العقيدة .

٣ ـ ذوى الحاجة .

من الواضح ان هذه السياسة مرحلية فهي ترتبط بالدرجة الاولى بطبقة من الناس واكبوا الثورة قرابة ثلاثين عام ، فتقدم بهم العمر وبدأوا يتوفون(١) والراجح ان ، الخليفة كان يدرك هذا وانه كان واثقا من قدرته على اجراء التغيير المطلوب في سياسته عندما تحين اللحظة الحاسمة . وقبل أن تحين تلك اللحظة كان ناتج هذه السياسة قد بدأ واضحا عند المسلمين الاول من اهل مكة بالدرجة الاولى ومن الانصار بالدرجة الثانية في شكل ثروات تنمو بسرعة ، وكانت هذه الثروات اما أراضي زراعية واما نشاطا تجاريا ومع ان الخليفة نجح في ابقاء المسلمين الاول من قريش بالذات في المدينة ومنع انتشارهم الواسع في الدولة وهو ما يفسر تركيز ملكياتهم الزراعية فيها وحواليها الا انه لم يكن قادرا على منع النشاط التجاري لهم الذي امتد مع امتداد حروب التحرير وكانوا يوجهونه من المدينة دون ان يتركوها ويخرجوا على سياسة الخليفة . وقد بلغت هذه الثروات قمتها عند فئة قليلة من المسلمين (٢) فلجا الخليفة الى منع عماله من العمل بالتجارة وكان هدفه الحيلوله دون استخدامهم الدولة ومواقعهم فيها في

---

(١) انظر تاريخ الخميس : ٢٤٦/٢ و . عدد من توفي زمن عمر بن الخطاب .

(١) للاطلاع على ثروات المسلمين الاول وملكياتهم راجع الدكتور صالح احمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجرى دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٩ ـ ص ٢٨٩ .

العمل التجاري لذلك كان يعد ثرواتهم ويدققها سنويا واذا ما اكتشف امرا لا يقتنع بتبريراته فانه ينزل العقوبة بصاحبه عادة أما المقاسمة او المصادرة ، ورغم هذا الثراء فان الاتجاه الى تنمية الثروة والتمسك كان بارزا في موقف أهل العراق والشام ممن شاركوا فيحروب التحرير فقد طالبوا الخليفة انيملكهم الارض مستندين الى نص قرآني غير ان الخليفة رفض ذلك واقر أهل السواد في أرضهم (١) . وفعل مثل ذلك في الشام أيضا ، فأثار بذلك حفيظة كبار المسلمين خاصة قريش .

عندما لاحظ عمر هذه التطورات بدأ يفكر في سياسة جديدة « لئن بقيت الى هذا العام لالحقن آخر الناس بأولهم ولاجعلنهم رجلا واحدا (٢) ، هذه هي ارادته وأما ارادة الآخرين فكانت شيئا آخر ، والراجح ان ضيق البعض بسياسته الاقتصادية وصل حدا كبيرا وتبرز قريش في المقدمة اذ يذكر الطبرى أن عمر قال لناس من قريش « بلغني انكم تتخذون مجالس ، لا يجلس اثنان معا حتى يقال من صحابة فلان ؟ من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس وايم الله أن هذا لسريع في دينكم وسريع في شرفكم ، سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول : هذا رأى فلان ، قد قسموا الاسلام أقساما افيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فانه ادوم لالفتكم واهيب لكم في الناس » (٣) ، وكان هناك تيار فارسي أيضا يضيق بانتصار العرب وهزيمة الفرس ويظهر ذلك علانية وكان الخليفة لا يرغب في أن يدخل المدينة احد من العجم ممن جرى عليه الموس (بلغ سن الرشد).غير أن بعض الفرس تواجدوا فيها خدما لرجالات قريش وفي سنة ٢٣ هـ نشطت الاتجاهات المتضررة من سياسة الدولة وقتل الخليفة على يد ابي فيروز لؤلؤة الفارسي خادم المغيرة بن شعبة (٤) .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٣٢٩ .

(٢) طبقات بن سعد ٢١٧/١/٣ .

(٣) طبقات بن سعد ٢١٣/٤ .

(٤) ن٠م : ٢٥٠/١/٣ وما بعدها .

الفصـــل الثــالث

تطـــورات ونتائـــج

تطـور الاوضاع الاجتماعية بعد عمر بن الخطاب

استمر تطبيق سياسة عمر بن الخطاب بعد وفاته خاصة السـنوات الخمس الاولى ، اما بعد ذلك فقد حدث اختلاف في التطبيق ، ولم يستطـع الخليفة عثمان بن عفان لا المحافظة على التوازن المطلوب في ادارة الدولة لصالح تطبيق تلك السياسة ، ولا اكمالها بايجاد نظام مالي ينظم استقرارها الاقتصادي ويضمن سيادتها وبقاء ثرواتها القومية ضمن سيادتها ، ولا في تحقيق الوحدة الثقافية للمجتمع العربي ، فقد ظهر خلل في الموقف من الملكية الزراعية وسوء تصرف في واردتها (١) وقد ظهرت ملكيات كبـيرة للعديد من رجـالات قريش والمقربين منها ، كما ظهرت رؤوس اموال كبيرة . ويحدد الحوار بين ابي ذر الغفاري ومعاوية بن ابي سفيان انها كانت ناتجة عن احتكار الذهب والفضـة، ويبدو ان الخليفة وقف موقفا سلبيا من اختلاف وجهـات النظر في هـــذه المسالة (٢) كما ظهر الخلاف واضحا حول ملكية السواد ، ففي حين جعـــل الخليفة عمر السواد ملكا عاما للامة ، وحدد علاقة المسلمين به علاقةاستخدام انتفاعي وليس ملكية قطعية، لجا الخليفة عثمان الى تمليكبعضالسـواد لرجالات قريش ، وهنا أصبح أمام أهل السـواد من المسلمين مبررا قويا للاعتراض ، واذا كانوا سابقا قد قبلوا سياسة عمر ، فلان حكمها عام شامل ليس فيـــه استثناء والمساواة متحققة ، اما وقد اختلت السياسة الآن فانهم رفعوا لواء المعارضة ، وقد ادى عدم اكمال جوانب اساسية من سياسة عمر الى عـــدم ضبط التوازن في تطور الابعاد الاجتماعية المتعددة ، لذلك لم تنشأ التقاليـــد الاجتماعية والسياسية المطلوبة التي تعزز الديمقراطية وتنظم مسألة السلطة ، فاضطربت الاحوال السياسية الاضطراب الذى ادى الى مقتل الخليفة عندما اجتمع ثوار الامصار في المدينة وفرضوا انفسهم على الدولة .

---

(١) تاريخ الطبرى : ٢٤٤/٤ .
(٢) صحيح البخارى : ١٣٣/٢/١ .

ظهرت علامات التذمر الاولى في مجتمعات الامصار . ويتحدث الطبرى عن شخص يهودى من اهل صنعاء من اليمن أسلم زمن عثمان بن عفان هو عبد الله بن سباء يتنقل في الامصار يدعو لعزل عثمان (١) لقد لجا أهل مصر الذين حرضهم عبد الله بن سباء الى ارسال الكتب الى أهل الامصار الاخرى يظهرون فيها عيوب ولاتهم ، وكان هؤلاء يجيبونهم بكتب شبيهة لها ، فاتسع نطاق حركتهم ، وشملت مدن الحجاز أيضا ، حتى أوسعوا الارض اذاعة(٢) .

ويبدو انه بتأثير هذه الدعاية ابتدأ أهل الكوفة يناضرون واليهم سعيد بن العاص ، وبرز منهم في هذه المناظرات ثلاثة معارضين هم حسان بن محدوج الذهلي وعدى بن حاتم ومالك بن الاشتر النخعي وكان موضوع الجدل في الكوفة هو السواد ، ففي حين كان سعيد بن العاص يرى أن السواد كله لقريش ، « فما نشاء منه اخذنا و مانشاء تركنا ، ولو أن رجلا قدم فيه رجلا لم ترجع اليه ، أو قدم فيه يدا لقطعتها . »

كان راى المعارضين على لسان الاشتر (نجعل مراكز رماحنا وما افاء الله علينا باسيافنا بستانا لك ولقومك ، والله ما يصيبك في العراق الا كلما يصيب رجلا من المسلمين) (٣) ، لقد نفي الاشتر الى الشام بأمر الخليفة ، وفي مصر برز عدد من المعارضين منهم كنانة بن بشر النخعي وخالد بن ملجم وسودان بن حمران المرادى (٤) ، الى جانب آخرين من غير أهل اليمن ، مثل محمد بن ابي بكر ومحمد بن حذيفة من بني عبد شمس (٥) ، والظاهران الخليفة لم يكن يعلم بامر هذه الحركة ، وان الصحابة عرفوا بها قبله ، وهم الذين اخبروه بها وطلبوا اليه ان يستقصي اخبارها ، فارسل محمد بن مسلمة الى الكوفة

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٢٦/٤ ، ٣٣١ ، ٣٤١ .

(٢) المصدر السابق : ٣٤١/٤ .

(١) الكوفي ، كتاب الفتوح : ١٧٢/٢ .

(٢) تاريخ الطبرى : ٣٤١/٤ الكوفي ، كتاب الفتوح : ٢٣٣/٢ .

(٥) ن٠م :

واسامة بن زيد الى البصرة وعبد الله بن عمر الى الشام وعمار بن ياسر الى الفسطاط ، فعادوا جميعا الا عمار بن ياسر ،فد كتب عبد الله بن سعد والي مصر الى الخليفة يعلمه أن قوما فيهم عبد الله بن سباء وخالد بن ملجم وكنانة بن بشر النخعي قد استمالوه (١) .

اعلنت الثورة عن نفسها في الفسطاط في شوال سنة ٣٥ عندما كان عاملها عبد الله بن سعد في المدينة ، فاستولى الخارجون على الفسطاط وطردوا نائبه عنها ، وكان بينهم كنانة بن بشر وسواد بن رومان الاصبحي وزرع بن يشكر اليافعي وسودان بن حمران وقتيره بن فلان السكوتي وعلى القوم جميعا الغافقي بن حرب العكي .

اما في الكوفة فقد اجتمع المعارضون بقيادة يزيد بن قيس الارحبي اثناء وجود سعيد بن العاص في المدينة في زيارته الثانية ، واتفقوا على منعه من دخول الكوفة ، وكتبوا الى الذين سيرهم الخليفة عثمان الى الشام نفيا يدعونهم للتوجه نحو الكوفة (٢) . وكان أهل الكوفة يرون راى الزبير (٣) .

غير ان هذا لا يعنى أن كل أهل الامصار كانوا يرون رأى الذين خرجوا يعارضون عثمان ، فعندما كتب الخليفة الى الامصار بما يدبره المعارضون هبوا لمساعدته ، وفي الكوفة كان مسروق الاجدع من همدان وآخرون يحرضون الناس لنصرة الخليفة ، كما كان معاوية بن حديج في مصر يتهيا للخروج الى المدينة لانجاد الخليفة ، وكان أهل الشام مع الخليفة ولم يكن بينهم من هو مؤيد للمعارضين (٤) .

كانت للمعارضين أسباب اخرى غير مجرد قتل عثمان ، فعثمان لم يكن سوى رمز لما كانت جهود المعارضين منصبة عليه ، لكن يبدو أن فترة عثمان

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٤١/٤ .

(٢) الولاة والقضاء : ١٤/١٣ تاريخ الطبرى : ٣٤٨/٤ .

(٣) الكوفي ، كتاب افتوح : ١٩٠/٢ . تاريخ الطبري : ٣٣١/٤ .

(٤) تاريخ الطبرى : ٣٥٢/٤ .

بن عفان شهدت بدايه تحولات اجتماعية لم يستطع هو أو جهازه من استيعابها، والراجح أن قريش التي افادت من الخلافة في أن كان العمال والاداريون منها ، استخدمت تلك المراكز في عملية اثراء واسعة ، فامتلكت الاراضـي واختزنت الاموال ونشطت في التجارة وظهرت تلك الطبقة الثرية في المجتمع (١) كمـا تتحدث الروايات عن اوضاع سلبية في مجتمع المدينة وظهور جيل جديد لـم يستطع النظام الاخذ بيده (٢) ، وهي ظاهرة وان كانت على مستوى المدينـة الأ أن التطور يفترض وجودها ايضا في مجتمعات الامصار ، وأن هناك طبقة من المسلمين ممن لم تكن لها منزلة قريش الاقتصادية كانت تشعر بعدم احقية قريش فيما تستحوذ عليه ، وقد عبر عن هذا قول الاشتر لسعيد بن العاص عن السواد (٣) ، فالشعور العام لدى سكان الامصار انهم هم الذين تحملوا عبء تحرير العراق والشام ومصر ، وهم الذين قدموا الضحايا ؛ غير أنهم يرون ما افاء الله عليهم يذهب اما الى المدينة او تستغله الشخصيات البارزة من قريش ؛ لهذا وجهوا معارضتهم ضد هؤلاء واولئك . ودراسة الامور التي ركز عليها المعارضون وهي عدم توزيع العطاء لاهل المدينة (٤) ومهاجمة ولاة عثمان (٥) ، انما تعبر في الواقع عن الظواهر التي عانوا منها وكانوا يعتبرونها عبثا يجب ان لا يكون . أن هذه الامور استفوت الناس ، والراجح أن انتشارها بين اهل الكوفة والفسطاط بالذات يعود لنوعين من الاسباب ، أسباب عامة مشتركة وأسباب ذاتية ، ومن الاسباب العامة أن اهل المصرين كانوا مجتمعين في خطط متجاورة ، وروحهم القبلية قوية وشعورهم بها مستمر ، كما أنهم لم يكونوا من اوائل النافرين الى الجهاد ، وانمـا جاؤوا في وقت متأخـر ، فمكانتهم في العطاء في الدرجة الاخيرة ، كذلك تغلب عليهم صفة البداوة ، فأهل

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٩٨/٤ .

(٢) المصدر السابق : ٣٩٨/٤ - ٣٩٩ .

(٣) الكوفي ، كتاب الفتوح : ١٧١/٢ سبقت الاشارة له في مقدمة فصلنـا هـذا .

(٤) تاريخ الطبري : ٣٥٥/٤ المناظرة بين عثمان ووفد مصر .

(٥) المصدر السابق : ٣٤١/٤ .

الكوفة من ربيعة ومضر من سكان نجد وشمال الجزيرة وهم بدو ، كما أن اهل اليمن في الكوفة غالبيتهم بدو ، ولم يكن التحضر فيهم عاما ، انما كان مقصوراً على القلة من حمير وبني الحارث بن كعب من مذحج وهمدان ، اما كندة وبجيلة وكانتا نصف متحضرتين ، كذلك اعراب همدان وبقية مذحج وخثعم والازد . في الفسطاط فتكاد تكون نفس الصورة ، فاهل الراية هم الوحيدون من اهل الحجاز السابقون في الاسلام ، اما اهل الظاهر وهم اهل اليمن فكان أغلبهم بدوا تقريبا باستثناء حمير (١) . وقد ساعد بقاء المصرين قاعدتين للامداد على استمرار علاقتهما بالجزيرة العربية ، خاصة من كان منهم يلتحق بجيش الجهاد وهم من الاعراب على الاغلب .

خلافة علي بن ابي طالب :

لم تجر الاوضاع مجرى اعتياديا بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ومبايعة علي بن ابي طالب بالخلافة ، والراجح ان الخليفة علي شعر بان اهل المدينة غير راضين عن وجود قتلة الخليفة فيما بينهم ، لذلك تراه ينقل العاصمة الى الكوفة ، كما خرج الزبير وطلحة الى مكة ، وكان نقل العاصمة عمليا يعني احداث تغييرات اخرى في العلاقات الاجتماعية ، خاصة في المجالين الاقتصادي والسياسي ، تتعلق جوهريا بالعطاء وموقف الولاة من بيت المال ، وبالتالي بمدى تماسك الوحدة الادارية والسياسية للدولة ، ولم يمتثل معظم الولاة خارج العراق لاوامر وتوجيهات الخليفة ، وانقسمت الامة الى عدة اتجاهات ، واذا كانت الجولة الاولى (معركة الجمل) قد حدثت بين الذين وقفوا موقفا متناقضا من مقتل عثمان عموما ، فالجولة الثانية (الصراع بين الخليفة علي والوالي معاوية) كانت اشد واقوى .

---

(١) تاريخ الطبري : ٤/٣٥٥ المناظرة بن عثمان ووفد مصر .

(١) الحديثي : نزار عبد اللطيف ، اهل اليمن في صدر الاسلام .

الصراع بين الخليفة والوالي :

ان تفحصا دقيقا لظروف الصراع بين الخليفة والوالي ، ومتابعة دقيقة لتطوره ، تكشف لنا عن طبيعة الاتجاهات الجديدة في الدولة، والتيكان منطلقها يعتمد على اساس مفاده : طالما ان الخليفة قتل بالقوة فبأمكان اي طرف يملك القوة ان ينتزع الخلافة ، وقد ارتكز معاوية على هذا المبدا في معارضته للخليفة علي ، اما العوامل التي كانت تدفع الذين تكتلوا مع معاوية او مع الخليفة علي فانها شيء آخر ، ويمكن اكتشافها من خلال الصراع والمواقف التي برزت فيـــه .

اذا اعتمدنا روايات الطبرى او نصر بن مزاحم عن صفين على علاتها ، فاننا نرى فيها ، رغم ملامح الانحياز الكبير ، معلومات بالغة الاهمية لم تستطع العواطف اسقاطها من الرواية ، واذا افترضنا ان الذين يهمهم التاريخ قـد اطلعوا على تلك الروايات ، نستطيع ان نستغني عن التفاصيل ونثبت ما يمكن استخلاصه من تلك الروايات .

ان موضوع الصراع بين الخليفة وواليه هو ببساطة موضوع نجاح معاوية (الوالي) في سحب مقومات السلطة من الخليفة ثم انتزاع الخلافة لنفسه . اذن نحن امام موقفين موقف معاوية الهجومي من اجل الوصول الى الخلافة وموقف الخليفة الدفاعي . اما كيف تحددت خطط الطرفين بهذه الصفات ففي تقديرى انها طبيعية ، رغم الفارق بين الطرفين ، وعلى الاغلب ان وجود الخليفة علي في الكوفة هو الذى جعل موقفه دفاعيا واوحى لمعاوية بالهجوم ، فاهل الكوفة على عكس اهل الشام شاركوا في قتل الخليفة والقتلة في الكوفة ، ولما كان العامل الظاهر الذى حدد معاوية في ضوءه موقفه ، هو الثأر من قتلـة الخليفة ، فقد اصبح اهل الكوفة دفاعيين . ربما لو ان الخليفة عليا بقي في المدينة لما تجرأ اهل الشام على اتخاذ هذا الموقف الهجومي ، فطاعتهم لاهـل المدينة طبيعية ، اما طاعتهم لاهل الكوفة فهي غير طبيعية للاعتبارات التـي ذكرناها أولا ثم لاعتبارات اخرى ، فاهل الشام عموما ممن كان موقفهم ايجابيا

منذ عهد الرسول (ص) وممن سارعوا الى الخروج في حرب التحرير مبكرا ، اذن هم افضل من حيث الاسبقية النضالية ، ثم هم من أهل المدن متحضرون تعيش فيهم تقاليد المدينة ، واهل الكوفة خرجوا متاخرين بعد معركة اليرموك ، وهم إعراب من اعراب اليمن وشمال وشرق الجزيرة العربية ، ولهم مع الاسلام موقف سلبي عندما شارك معظمهم في احداث الردة ، ورغم انهم قاتلوا الفرس في اوج قوتهم واحرزوا انتصارا تاريخيا في القادسية ، الا ان انتصارهم لم يصهرهم جيدا . لذلك قاتل اهل الشام ثارا للخليفة المقتول واجابة لعلاقة وثيقة مع الوالي عمرها اكثر من ثلاثين عاما ، وهم من حيث يشعرون او لايشعرون اصبحوا يحسون ان عزل الخليفة لواليهم يعني افقادهم مكانتهم المرموقة تلك ، لذلك كانت حربهم جماعية ايضا . أما أهل الكوفة فصلتهم بالخليفة ضعيفة تعود الى فترة الاحداث في أواخر ايام الخليفة عثمان ، وهم متقدمون الى القتال دون فهم مسبق لموقفه الجوهري ، لذلك كانت صلتهم بالقتال ضعيفة وجعلت خلفيتهم التاريخية وطبيعة تركيب مجتمع الكوفة نوازعهم متعددة ، وحتى قتلة عثمان لم يكونوا مع علي انما كان هواهم أول الامر مع الزبير (١) وكانت استجابتهم له في معركة الجمل ضعيفة ، وكان ذوو النفوذ من امثال أبي موسى الاشعرى وجرير بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس الكندي غير متحمسين له . لذلك كانت حربهم فردية اضافة الى طابعها الدفاعي .

عندما اتجه الخصمان الي صفين اخذا معهما كل قوتهما ، غير أن وقائع صفين لا تعكس رغبة في حرب حقيقية ، وكان تركيز الطرفين على الحرب النفسية من خلال المناوشات المتقطعة اكثر من التركيز على احراز نصر سريع بمعركة حاسمة ، ربما اكتسبت الحرب هذه الطبيعة بسبب تشكيلة الجيشين ، فكلاهما كان يضم اعدادا كبيرة من القراء .. واذا لم يكن لدينا رقم لقراء أهل العراق ، فقراء اهل الشام كانوا اربعة آلاف مقاتل ، وتبرز قوة القراء في

(١) تاريخ الطبرى : ٣٣١/٤ ، ٣٤٨ .

التاريخ العربي منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب . ويبدو انهم لعبوا دورا كبيرا في صنع الاحداث في عهد عثمان (١) ، وفي الخلاف بين الخليفة علي ومعاوية يبرز القراء قوة كبيرة سواء في اعدادهم او في دورهم في تعزيز موقف كل من الطرفين وتوجيه هذا الموقف ، ويرد ذكر بعض الرجال البارزين ضمن القراء مثل ابي موسى الاشعري وهاشم بن عتبة وعبيد الله بن عمر والاشعث بن قيس وعمار بن ياسر (٢) غير أننا لا نعرف ما اذا كان وجودهم بسبب احتياجات القتال (قاده) أو لانهم كانوا يرون رأى القراء .

انتهى القتال الى قبول الطرفين بالتحكيم ، ثم انتهى التحكيم لصالح معاوية . وعاد معاوية وجيشه بكامل وحدته الفكرية والسياسية ، بينما انقسم جيش الخليفه ، ويعكس انقسام الجيش الخلفية العقائدية والسياسية للجيش التي سبق وأن وصفناها بأنها مزيج من المبادىء المعاصرة والخلفية الصحراوية الحادة التغيير ، فعندما طلب أهل الشام الاحتكام الى القرآن ، أدرك الخليفة الدوافع الحقيقية وراء هذا الموقف ، لذلك أمر جيشه بمواصلة القتال ، غير أن الجيش رفض وظهر عدم ولائه للخليفة بسرعة (ياعلي اجب الى كتاب الله عز وجل اذ دعيت اليه ، والا ندفعك برمتك الى القوم او نفعل كما فعلنا بابن عفان) (٣) ، وعندما قبل التحكيم فرضوا عليه ممثل العراق في التحكيم ابو موسى الاشعري بينما كان هو يريد عبد الله بن عباس ، وكان الاصرار على ابي موسى منطلقا من رؤية سياسية خاصة (مانبالي انت ام ابن عباس لا نريد الا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ليس الى واحد منكما بأدنى منه الى الآخر (٤) وعندما انتهى التحكيم لصالح معاوية قالوا لعلي « تحكمون

---

(١) تاريخ الطبرى : ٤٣/٥ انظر قول هاشم بن عتبة عن مقتل عثمان / قتله أصحاب محمد وأبناء أصحابه وقراء الناس .

(٢) ن.م : ١٥/٥ ، ٣٤ ، ٤٣ ، ٥١ .

(٣) تاريخ الطبرى : ٤٩/٥ ، نصر بن مزاحم ، ٤٩٠ .

(٤) ن.م : ٥١/٥ .

في أمر الله عز وجل الرجال لا حكم الا الله » (١) ، لقد كان وضع علي في جيشه اشبه بوضع الاسير وليس القائد ، على عكس موقف معاوية في جيشه (٢) .

تطورت الاوضاع فيما بعد لصالح معاوية عندما قام الخوارج باغتيال الخليفة علي ، حيث تفرغ الخليفة الجديد معاوية بن أبي سفيان الى تنظيم اوضاع الدولة واعادة تثبيت الوحدة الادارية والاقتصادية ، غير أن الخليفة صرف همه الى تنظيم مسألة السلطة ظنا منه انها مصدر الخلل ، لذلك اتبع نظام ولاية العهد ، ومن الخطأ الاعتقاد ان حالة القلق السياسي التي سادت الفترة ناتجة عن نظام ولاية العهد ، فالواقع أن كل الاتجاهات السياسية في المجتمع العربي كانت تؤمن بهذه النظرية السياسية ، سواء آل البيت الذين ارادوا حصر الامر في بيت الرسول (ص) ، او الامويين، أو غير ذلك من الاتجاهات التي قادها الصحابة ، باستثناء الخوارج الذين كانوا حتى هذا الوقت غير واضحي الموقف من مسألة انتقال السلطة ، ولو أن اعتمادهم الشديد على القرآن وغلبة الروح البدوية اوجد لديهم ذلك المزيج من المبادىء العصرية ذات الخلفية الصحراوية الحادة والسريعة التغيير ، أن القلق السياسي سببه الخلل في تطور المجتمع ، ذلك الخلل الذى لم يكتشفه الا عبد الملك بن مروان الذى استوعب تجربة الاسلام بسبب اقامته في المدينة وتضلعه بالعلم ، الذى نجده بمجرد استلام الخلافة وتهدئة الاوضاع يتجه الى انجاز المهمتين آنفتي الذكر ، فيقوم بالغاء النظام المالي المعتمد على النقد الساساني والبيزنطي ، وبناء نظام مالي عربي جديد يسك نقوده في الدولة ، ويوفر لها ما تخسره مقابل عملية السك ، ويضمن لها بقاء ثرواتها ضمن سيادتها ، ثم يخطو الخطوة الثانية بتعريب الدواوين وتعزيز اللغة العربية وتعميمها لغة رسمية في معاملات الدولة، وبالتالي تهيئة ارضية للوحدة الفكرية في المجتمع العربي (٣) .

---

(١) ن.م : ٥٥/٥ .

(٢) ن.م : ٤٩/٥ ، نصر بن مزاحم ، ٤٨٤ .

(٣) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ٦٧/٢٢ — ٦٩ .

أما موضوع السلطة وكيفية تداولها فقد بقي نظام ولاية العهد هو النظام المتبع في الدولة ، وكان الخلفاء أحيانا يولون لاثنين أو ثلاثة . فقد عهد مروان بن الحكم لعبد الملك ثم لعبد العزيز وعهد عبد الملك للوليد ثم لسليمان ، ولم يدخل العباسيون اى تعديل جوهرى في النظام ، فقد عهد الرشيد للامين والمامون والقاسم .

لقد بقي شكل السلطة على وضعه الذى ارساه معاوية بن ابي سيفان ، والتطور الوحيد الذى حدث هو استحداث منصب الوزارة من قبل ابي العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ .

أما الدواوين فقد كانت تتعرض لبعض التغييرات في التخصصات ليس اكثر ، حدث التغيير الحقيقي في فلسفة السلطة ، ففي حين كانت خلافة الراشدين كما لاحظنا تنطلق من المبادىء الاساسية للاسلام ، وتحكمها ضوابطه ومقاييسه ، تلك الضوابط والمقاييس التي عبرت عن نفسها في المركزية الديمقراطية والعدل والتواضع والشعور بالمسؤولية تجاه الامة واعتماد راى الصحابة ، اتجهت السلطة زمن معاوية وبعده الى شكل من أشكال الدولة القوميه ، اما زمن العباسيين فقد اتسمت بطابع السلطة الثيوقراطية ، تمثل ظل الله على الارض ، فهي مفوضة من الله الى الخليفة .

الباب الرابع

« العرب والعالم »

١ ـ العرب ورسالتهم الانسانية الجديدة

٢ ـ العروبة والاسلام

٣ ـ اتصال العرب بشعوب العالم

٤ ـ العرب والتحديات الاجنبية



كتب تاريخ وعلوم أخرى
facebook.com/hisy.books

العرب والعالم

العرب ورسالتهم الحضارية الجديدة :

منذ سقوط بابل في ٥٣٩ ق.م على يد الكاشيين تعاقبت على الوطن العربي قوى احتلالية حكمته طوال الفترة حتى اوائل القرن السابع الميلادى وقد اتسم الوضع العالمي في القرن السابع الميلادى باتساع حركة الاحتلال وشمولها اوسع نطاق من الاراضي المعروفة آنذاك .

وقد تقاسمت الامبراطوريتان الساسانية والبيزنطية النفوذ والسيطرة على العالم ، وكلاهما تقومان على فكرة الاحتلال والاستعباد ، وباستثناء الامبراطور والحاشية وطبقة النبلاء والموظفين الكبار فجميع رعايا الدولة كانوا من العبيد فاقدى الحرية ، لذلك نستطيع القول ان البشرية كانت تعاني من ازمة حضارية قوامها نظام العبودية والاحتلال ، وكان لهذه السيطرة معتقدات دينية تشكل ثقافةوخطا فكريا للسياسة الامبراطورية، فالامبراطورية البيزنطية تعتنق المسيحية على المذهب الملكاني ، بينما الامبراطورية الساسانية تعتنق المانوية وهي وثنية مشركة .

ونتيجة للاحتلال فرض على معظم العرب الانسحاب نحو جزيرة العرب بينما بقي العديد منهم في الاراضي المحتلة يناجزون المحتلين ويتعاملون معهم بوسائل متعددة كان ابرزها التضاد الثقافي والكفاح المسلح .

فلم يعتنق العرب الديانة الفارسية ولم يرضوا تشجيع الفرس وحمايتهم لليهودية ، كما ثبتوا على المسيحية الاولى كما نزلت على عيسى وقبل ان يحرفها بولس وبطرس ، ورفضوا محاولات الدولة البيزنطية لفرض المذهب الملكاني عليهم وحينما يبلغ التضاد حدته يلجأ العرب الى القتال . ولم تكن جزيرة العرب بمنأى عن الصراع الدولي ، ومارست كلا القوتين العالميتين محاولات السيطرة عليها .

فقد جرب اليوس جالوس السيطرة عليها سنة ٢٥ ق . م غير انه فشل ،

ثم شجع الرومان نصيرهم ملك الحبشة على غزو الجزيرة من الجنوب ، وقد نجحت اخر الحملات الحبشية في عهد الملك آل صبيحة بقيادة ارياط في القرن السادس الميلادي في اسقاط الدولة الحميرية واحتلال اليمن .

كذلك كانت للفرس جهودهم ، فقد حاول سابور ذو الاكتاف غزو الجزيرة العربية من جهة الخليج العربي ، غير انه فشل في السيطرة عليها ، الا ان حملة الفرس في اواخر القرن السادس الميلادي نجحت في القضاء على حركة الاستقلال التي قادها البطل القومي سيف بن ذي يزن في اليمن ، ووسط هذا الصراع شهدت الجزيرة غياب السلطة المركزية وشيوع مرحلة البداوة والتفتت الاجتماعي والثقافي ، فالعرب ايضا كانت لهم أزمتهم الحضارية ، ضمن الازمة الحضارية للبشرية ، غير ان أزمتهم الحضارية كانت تتحدد بالاحتلال والتجزاة والتخلف .

شهدت الامة العربية رغمازمتها الحضارية النضجوالنمو والتفتح، فتقاليد الماضي الحضاري كانت شاخصة للعيان ، تهز الوجدان وتثير امام الذهن حدة التناقض بين الماضي المزدهر ، والحاضر المتحجر المختلف ، وكان هذا التناقض يطرح جملة تساؤلات على الانسان العربي ، وقد ساعدت الطبيعة التاملية للانسان العربي في التفكير الجدي في المسؤولية الفردية ازاء هذا التخلف ، فظهرت جملة مواقف كانت تهدف الى تقديم الحلول لهذه الازمة ، ارتكزت جميعها على التوحيد باعتباره السمه القومية للتطور التاريخي للعرب والاطار الفكري العام لحركتهم . وكان احدها ما مثلته حركة الاحناف من تقدم فكري ونضج في المعتقدات الدينية بالتزام التوحيد ، غير ان هذه الحركة لم تكن تمتلك القدرة على تجاوز الواقع ، وانكفات في حدود حركة تامل فردية رغم انها حظيت باستجابات ادبية تمثلت في شعر امية بن أبي الصلت وغيره .

ثم جاء الاسلام ليقدم حلولا جذرية للازمة الحضارية في نطاقها القومي والعالمي ، فعلى المستوى العالمي عارض الاسلام الثنوية القائمة في المعتقدات الدينية والشرك السائد وتحريفجوهر الرسالاتالسماوية، عندما تجاوز طرح التوحيد في القرآن تقليديا على النمط الذي جاء عند الموحدين السابقين بتشجيع

عبادة الرب الواحد من مجموع الالهة الموجودة ، انما اخذ صفة الحسم « لا اله الا الله » . وقد عزز قوة التوحيد انه جاء مصحوبا بمقاييس اجتماعية ليست مالوفة في المجتمع الانساني انذاك ، قوامها الحرية والعدل والمساواة ، وعلى المستوى القومي ولمقتضيات المجابهة مع الاحتلال والشرك وضرورة ايجاد أداة المجابهة لحسم الازمة الحضارية العالمية ، طرح الاسلام مسالة بعث الامة العربية واكمال شخصيتها القومية وبناء دولتها الواحدة ، فعندما تكون مسؤولية الامة محددة في مساهمة متميزة للحضارة العالمية تصبح مسالة بناء الامة مسالة ضرورية لا بد منها لتحقيق ذلك الطموح ، فشعور الامة بالوحدة يعطيها حق الطموح لحمل رسالة بجسامة رسالة الاسلام .

العروبة والاسلام :

لقد سجل القرن السابع الميلادي بداية نضج قومي تمثل في اتجاهات الوحدة الشاملة على المستوى الاجتماعي والديني والثقافي والسياسي ، ووسط هذا النضج جاء الاسلام ، فاختيار العرب لتبليغ رسالة الاسلام كان بسبب مزايا وفضائل اساسية فيهم . كما ان اختيار العصر الذي ظهر فيه الاسلام كان لان العرب قد نضجوا وتكاملوا لقبول مثل هذه الرسالة وحملها الى البشر(١) . وقد ادرك الرسول (ص) ان الواجب الذي تفرضه انسانية الاسلام هو أن يكون العرب اقوياء سادة في بلادهم .

وقد حاكى الاسلام هذه الحقيقة ونبه الى هذا الواجب .. ولتكن منكم امة يدعون الى خير ويامرون بالمعروف (٢) فانتصار مباديء الاسلام اذن يحتاج الى امة ، الى طليعة تنذر نفسها للعمل الجديد وحمل الرسالة وتاخذ على عاتقها هدى البشرية « كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٣) وهذه الامة الوسط هي الامة العربية لانها كانت في مرحلة النضج الحضاري « كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن

---

(١) القائد المؤسس : في سبيل البعث : ١٢٧ .
(٢) آل عمران : ١٠٤ .
(٣) البقرة : ١٤٣ .

المنكر » (١) . لذلك فهذا الدين ينزل على العرب وهذا القرآن اداة وعيهم «وانه لذكر لك ولقومك» (٢) ويستمر القرآن الكريم يعزز هذه العلاقة بين العروبة والاســلام .

« انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (٣) .

« لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين » (٤) .

« وكذلك انزلناه حكما عربيا » (٥) .

« وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا » (٦) .

« وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد (٧) .

مبين » (٨) .

« قرآنا عربيا ذي عوج » (٩) .

« كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » (١٠) .

« كذلك أو حينا قرآنا عربيا » (١١) .

---

(١) ال عمران : ١١٠

(٢) الزخرف : ٤٤

(٣) يوسف : ٢

(٤) النحــــل : ١٠٣

(٥) الرعــد : ٢٧

(٦) الاحقاف : ١٢

(٧) طــه : ١١٣

(٨) الشعراء : ١٩٥

(١٩) الزمر : ٢٨

(١٠) فصلت : ٣

(١١) الشورى : ٧

« انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (١) .

ووجد هذا التركيز صداه في سياسة الرسول (ص) التي اتجهت الى احتواء الامة العربية احتواء عقائديا وليس عنصريا وقد أكد هذا الاتجاه في وثيقة المدينة « هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، انهم امه واحدة من دون الناس » (٢) ووفقا لهذا النص ليس كل العرب أمة واحدة انما العرب المؤمنون فقط ، فالامة هنا كيان بشرى قومي لكنه يقوم على العقيدة أيضا ، وكل من لا يقبل هذه العلاقة ليس من الامة .

لقد نجح الرسول الكريم (ص) في تأكيد مفهوم الامة العربيه وبناء شخصية المناضل المؤمن ، وحقق مرحلة أولية من الوحدة في حدود الجزيرة العربية ، وأصبح قادرا على الاعلان عن دعوته وعن حلوله للازمه الحضارية التي تعاني منها البشرية ، فارسل الرسل الى ملوك العالم وحكامه . ومنذ ذلك الوقت أصبح الصراع مع قوى الاحتلال العالمي يخدم هدفين في ان واحد ، فهو من ناحية قومية يزيح الاحتلال عن اجزاء الوطن العربي المحتلة ويحرر الاراضي العربية ، وهو من الناحية الثانية يعبر عن جهد عربي لانهاء الازمة الحضارية للبشرية بانتهاء مرحلة الاحتلال والحرمان من الحرية الاجتماعية والاقتصادية .

وبعد وفاة الرسول (ص) نجح خلفاؤه في انجاز مهمة تحرير الاراضي الخاضعة للسيطرة الساسانية والبيزنطية في كل من العراق والشام ومصر حتى برقه ، ومع ان السنوات الاولى من عهدهم كانت مكرسة لعملية التحرير الا أن هذا لم يكن يمنعهم من التفكير بتعميم المجتمع الذي تم تكوينه في المدينة .

جاءت الخطوات الاولى على هذا الطريق في طبيعة تكوين الجيش العربي المحرر ، فهذا الجيش لم يخرج جيش مقاتلة فحسب ، انما كان خروجا بشريا وقوميا شاملا ، فالذين خرجوا الى الجهاد هم المقاتلة ونساؤهم وأطفالهم ،

---

(١) الزخرف : ٣

(٢) سيرة بن هشام : ٢/٤١/٢٦/٢٤٢ .

شيوخا وشبابا ، ثم استقروا في الامصار التي مصرت ، وشكلوا مع عرب الاراضي المحررة مادة اولية لتعميم المجتمع الجديد ، فالشعور بالقضية المشتركة ووحدة المصلحة من خلال الوعي بعملية التحرير وممارستها ساهمت في تطور مهم في تكوين الامة ، وقد قدر الخلفاء هذه الاهمية لذلك أصبح التأكيد على ان الهجرة ايضا تشمل الامصار ، فكل من سكنها مهاجر شرط ان يجاهد ، وساعد هذا التلازم الشرطي بين الاستقرار في الامصار والجهاد في عملية تعزيز تكوين قيم المجتمع الجديد ، ومع ان هذه الموجات الاولى استقرت في امصار محددة الا أنهم توزعوا بعد ذلك في مدن وريف الاراضي المحررة ، وهكذا أصبح مفهوم الامة يستند الى اساس حضري .

وقد بقيت مسالة تعزيز مفهوم الامة موضع اهتمام القيادات السياسية ، فكان التاكيد عليها باستمرار على انها الامر الذي يجب ان يلتقي عنده الجميع والامر الذي يجب ان تتلاشى امامه الدعوات المرتبطة بمرحلة الجاهلية باعتبارها مرحلة التخلف (١) . وشغلت هذه المهمة جهود الخلفاء ، كما ويبرز في هذا المجال الدور الرئيس للخليفة عبد الملك بن مروان حيث اكمل بناء مؤسسة الدولة دولة امة انها عقيدة ، وقد بقيت مهمة الخلافة تتلخص في الموازنة بين كون الدولة دولة قومية وبين رسالة الدولة التي هي انسانية عالمية .

اتصال العرب بشعوب العالم :

ابتدا اتصال العرب بشعوب آسيا اولا ، وذلك بعد اسقاط الامبراطورية الساسانية والقضاء على ركائزها من الاقطاعيين وتوزيع الاراضي على الفلاحين واجتثاث ثقافة الثنوية التي كانت تعتمد عليها تلك الدولة ، وقاد هذا الدور الى تقدم العرب في بلاد آسيا والوصول الى الصين ، ونتج عن هذا الدور ان

---

(١) انظر خطبة زياد بن ابي سفيان في البصرة ، تاريخ الطبري ج ٥ ٢١٩ - ٢٢٠ « اياى ودعوى الجاهلية فاني لا أجد أحدا ادعى بها الا قطعت لسانه وقد احدثتم احداثا لم تكن .. لا يظهر من احد منكم خلاف ما عليه عامتكم الا ضربت عنقه » .

ازدهرت الحركة الفكرية في ربوع آسيا ، ونشطت مراكز متعددة لها في خراسان وبخاري وسمرقند والهند ، وكانت المدارس المنتشرة فيها أماكن يتلقى فيها الناس التعليم ، وظهرت الى ميدان النشاط الحضاري طبقة من العلماء والمفكرين وانتشرت المكتبات في معظم المدن ، وازدهرت في ربوع آسيا حركة عمرانية ، ونمت حركة ادبية وفنية واسعة عبرت عن نفسها في الشعر والموسيقى وفن الرسم والزخرفة ، وباللغة العربية .

اما أوربا فقد تأخر اتصال العرب بها الى مابعد القرن السابع الميلادي، عندما نجح العرب في عبور مضيق جبل طارق الى أسبانيا ، ففي تلك البيئة الاوربية ابدع الانسان العربي حضارة تعد من أروع الحضارات ، فقد انتشرت المدارس والجامعات في بلاد الاندلس ، قصدها الطلاب من مختلف انحاء العالم وأوربا بالذات ، يتلقون فيها العلوم المختلفة وينهلون من مصادر الابداع العربي فيهـا .

لقد قاد انجاز المهمة القومية في التحرير والوحدة الى الصدام مع تلك القوى المحتلة ، وقاد الى تتبعها او القضاء عليها ، وقاد هذا الى تلازم عملية التحرير والوحدة مع عملية تحرير شعوب الامبراطوريات القديمة ونشر مباديء الحرية والعدالة والمساواة ونقل المدنية لها واتاحة المجال للانسان في ان يعبر عن نفسه ويعطي للحضارة العالمية ما عنده .

لقد رحبت هذه الشعوب بدور العرب بعد ما تفهموا مبادئهم وقدروا مثلهم فاقبلوا يعتنقون الاسلام ويتعلمون اللغة العربية ، فاستقرت الاوضاع العالمية على مباديء العدل والحرية والمساواة ، واستتب الامن بين الناس ، وتخلصت البشرية من ازمتها الحضارية ، مما اتاح العرب مجالا انصرفوا فيه الى اكمال البناء الانساني والافادة من التفتح البشري بالاتجاه الذي رسمته لهم مبادؤهم .

ولقد كان العربي صاحب اهتمامات انسانية ونظرة واقعية وحس مرهف بالعدل وادراك فطري لجوهر الامور وتقدير للحرية ، فقد اتجه اهتمام العرب الى

الانسان وما يتعلق به من علوم وسياسة وتربية ، وكان الشغل الشاغل للعرب هو كيف وأين توظف قدرات الانسان بعد تحرره من القيود القديمة ؟ ومع ان توظيف هذه الطاقات شمل مختلف نواحي الحياة الاجتماعية ، اقتصادية وسياسة وفكرية ، غير انه في الاخيرة لقي اهتماما خاصا وعناية كبيرة ، فالفكر اكثر تعبيرا عن الجوهر الانساني للفرد واقرب الى جوهر الروح وهو المعبر عن التقدم .

لقد ادى انتشار الاسلام فيما بعد الى اتساع انتشار العرب معه ، فهو رسالتهم الى البشرية ، ومع ذلك لم تتغير حدود الارض العربية . والملاحظ أنها تحددت على اساس جغرافي بشري وثقافي ، فالمراكز التي انشأها العرب في البداية معسكرات للجند ، كالكوفه والبصرة والفسطاط والقيروان وواسط وبغداد ، اصبحت في الفترة اللاحقة مراكز للاشعاع الثقافي وحلقات مهمة في تواصل رسالة الامة عبر التاريخ ، ولعبت هذه المراكز بقيادة المدينة في صدر الاسلام دورا في تكوين الشخصية الثقافية للامة العربية ووضعت ، اسسها ، فلما انتقل مركز الحركة الفكرية الى بغداد اصبحت بغداد قائدة لمراكز فكرية جديدة نشأت بالضرورة في نطاق آخر من الاقاليم المختلفة في آسيا . لقد ساعد الاتجاه العام في الدولة العربية الذي هو حرية التنقل والاستقرار مضافا له حرية الفكر واختيار مواضيعه ومجالاته واساليبه ، في فسح المجال لنشوء مراكز اخرى فيما بعد ، ففي المشرق انتشرت في خراسان وغيرها مراكز عدة مثل نيسابور ومرو وهراة ، وفي المغرب كانت الاندلس من ابرز مراكز الحركة الفكرية . ومع ان بعض هذه المراكز نشأ خارج الوطن العربي الا انها بقيت على نفس الاسس من حيث التنظيم ونطاق البحث السائد في المراكز الاولى وقد لعبت جميعها دورا بارزا في اغناء الحضارة البشرية وبقيت مدة طويلة مراكز الانتاج الحضاري الوحيد في العالم .

كان الجهد الثقافي العربي ابداعا ذاتيا تجلى في الدراسات الفقهية واللغوية والتاريخية ، وقد عزز هذا الابداع بعملية التعريب التي قام بها الامويون ، وحل

التباين بين الامة وبين النظم التي ورثتها ، فعملية إلتعريب كانت عملية تكييف شاملة لتلك النظم ، بعدها انجز العرب وضع أسس ثقافتهم القومية وحددوا ملامحها ، وأصبحوا مهيئين للاتصال بالحضارات الاخرى ، ولم يقتصر اتصالهم على الثقافات التي سبقتهم ، انما نجحوا في تمثل تلك الحضارات العربية القديمة في الوطن العربي ، واستلهام روحها التي هي تعبير عن رسالة الامة ، وهكذا تدريجيا أصبح الدور العربي انسانيا غير مقصور على تحقيق وحدتهم القومية ، انما ايضا نشر مباديء الاسلام (التوحيد والعدل والمساواة) وتوعية وتنوير البشرية ، وتسهيل فرص مساهمتها في البناء الحضاري ، ومن هنا جاء ارتباط العروبة بالاسلام ليكون في رأي الشعوب الجديدة ارتباطا عضويا (١) .

اقترنت العروبة بالاسلام ، اقترانا جوهريا وليس اقترانا ظرفيا ، لان يقظة العرب القومية اقترنت برسالة دينية ، أو بالاحرى كانت هذه الرسالة معبرة عن تلك اليقظة القومية فلم يتوسعوا بغية التوسع ولا افتتحوا البلاد وحكموا استنادا الى حاجة اقتصادية مجردة ، أو ذريعة عنصرية ، أو شهوة للسيطرة والاستعباد ، بل ليؤدوا واجبا دينيا كله حق وهداية ورحمة وعدل وبذل اراقوا من أجله دماءهم (٢) .

غير ان هذا لم يكن يعني ان الاسلام وجد ليكون مقصورا على العرب ، وما كان كذلك ولافهمه العرب كذلك ، لقد اكتفى العرب من الاسلام انه عبر عن ثورة الامة العربية ودورها الانساني ، أمة تنزع في أصل تكوينها الى القيم الشاملة ، فالاسلام في نزوعه الكوني اعطي العروبة بعدا انسانيا ، واقتران العروبة بالاسلام قاد بالضرورة الى اقتران العروبة بالانسانية ، حتى اصبحت يقظة العرب القومية يقظة تتجاوز حدود الذات القومية فالمخاض القومي عند الامة العظيمة هو الذي يبدأ بالتكون اجابة لمتطلبات تتجاوز الافق القومي الى انساني أرحب .

---

(١) شكا دهاقين الفرس الى الامير أشرس بن عبد الله السلامي أمير خراسان وما وراء النهر فقالوا له : ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا قصدهم (مسلمين) تاريخ الطبري ، جـ١٩٦/٨ .

(٢) القائد المؤسس في سبيل البعث .

لذلك بعد ان حقق العرب الوحدة العربية ولعبوا دورهم كاملا في تحرير الشعوب اهتموا بحفظ التوازن بين كون الدولة عربية وبين الرسالة التي اقترنت بهذه الدولة وهي رسالة الاسلام الانسانية ، غير ان القيادات السياسية فيما بعد وخاصة (العباسيين) لم يتابعوا حفظ التوازن ، انما وانسياقا وراء المصالح السياسية المجردة مال العباسيون على مصلحة الامة في دولتها القومية لصالح الدور الانساني للاسلام ، متناسين ان العرب اداة هذا الدور وأصحاب المعاناة في تحققه ، وان اقصاء العرب عن هذا الدور انما يفقد الرسالة جوهر تحققها ، فالرسالة ليست شعارات تنزع من هنا لتوضع هناك ، انها معاناة وتقاليد ونظرة الى الحياة ، فعندما رفع العباسيون شعار تطبيق سنة النبي (ص) كان فهمهم لهذه السنة باعتبارها سنة دينية بحته مجردة من احتياجاتها الواقعية والاجتماعية والسياسية التي هي (بناء الامة الاداة) فقد انتزعوا الرسالة من ظرفيها المكاني والزماني الى ظرف جديد ، وقد امتد هذا الخلل الى اخطر مؤسسات الدولة الذي هو الجيش ، فقد كان الجيش العباسي جيش مرتزقة من غير العرب ، ممن أسلموا حديثا أو لم يسلموا اطلاقا جيش عربيا ، لذلك كان بينه وبين الرسالة اكثر من حاجز عقائدي وسياسي ، ولقد سارعت الشعوب المنضوية تحت راية الاسلام الى استغلال هذا الشعار باتجاه تحقيق مصالحها حتى خارج حدود الدين ، واذا كان الخلفاء العباسيون الاوائل تمتعوا بقدر كبير من الخبرة والقوة والصفات الشخصية التي مكنتهم من حفظ التوازن بين مصلحتهم السياسية وتنامي المصلحة الخاصة للشعوب غير العربية التي ايدتهم والتي مثل ثقلها وزراء الدولة من الفرس، فكانوا كلما رأوا تجاوزا للخط الفاصل بين المصلحتين لجاوا الى استئصال تلك القوى باستئصال الوزراء كما حدث لابي سلمه الخلال وابي مسلم الخرساني والبرامكة وآل سهل غير ان هذا لم يكن كافيا فيما بعد ، فدور الفرد في حفظ التوازن محدود بقدرات الفرد ، لذلك فهو عرضه للتغيير والتذبذب ، ولكن عندما يكون التوازن محكوما بضوابط وموجهات فانه يكون اضمن واقوى ، وعندما جاء الخلفاء الذين لا يملكون مواصفات

الخلفاء الاول ولا تتوفر الضوابط والموجهات الحاكمة ، اختل التوازن وتحول الجيش العباسي الى قوة منصرفة لمصالحها ، فبدلا من أن يعيش وينمو على الايمان بالامة ليحميها ، أصبح يعيش وينمو على حساب الامة ، ومن هنا امتد الخلل الى مرافق الدولة الاخرى الادارية والاقتصادية وشل قدرتها على الحفاظ على سيادة الدولة وبناءها السياسي .

العرب والتحديات الاجنبية :

نتج عن احتكاك العرب بقوى الاحتلال ، اسقاطها أو طردها من الوطن العربي ، ومن تهديد مصالحها باشاعة مبادىء الحرية والعدالة والمساواة ونشر الوعي والتمدن بين الشعوب وقد ترتب على هذا الدور ان أصبح للامة العربية اعداء تقليديون في وقت مبكر ، وكانت معظم مشاكل العرب مع الفرس .

لقد أدرك الفرس عدم قدرتهم على مجابهة حركة التحرير العربية لذلك قرروا في اجتماعهم الذي عقد بعد معركة جلولاء بحضور يزد جرد وحاشيته والموبذان موبذ الدخول في الدين (١) وقد تكرر هذا الاجتماع في نهاوند وتدارسوا اوضاعهم واتفقوا على نقل المعركة الى داخل الدولة العربية « وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبوا بينهم على ذلك كتابا تحالفو عليه » (٢) .

لقد نفذ الفرس هذا الراي في اغتيالهم الخليفة عمر بن الخطاب معبرين بقتله عن حقدهم على الامة العربية من خلال الحقد على الخليفة (٣) ومنذ ذلك الوقت كانوا طرفا في كل أحداث الانقسام والاختلاف فكانوا في قتل عثمان ، وكان منهم قاتل الحسين بن علي .

عبر التحدي الفارسي عن نفسه بشكل منظم لاول مرة في حركة شعوبية مناوئة كان العراق ممرها الى الوطن العربي حيث انتشرت في الحجاز وبلاد الشام واليمن . لقد عبرت الشعوبية عن نفسها بمظهرين مظهر ديني تمثل في تشويه مبادىء الاسلام .. والثاني عنصري استهدف طعن في العرب وتشويه

---

(١) تاريخ الطبري ، ٩٠/٤ .

(٢) ن.م ١٢٢/٤ .

(٣) ن.م : ١٣٦/٤ .

حضارتهم وهدم دولتهم . ورغم ذلك فهما في الواقع تعبير عن موقف واحد من الامة العربية ورسالتها .

لقد جابهت الامة العربية الهجمة الشعوبية ، ولعبت السلطة الرسمية دورها اضافة الى رجال الدين والعلماء والمفكرين والجمهور كل ضمن اختصاصه واذا كان رد السلطة اتخذ طابع العنف والاستئصال ، فان الاطراف الاخرى لجأت الى المجابهة الفكرية .

انبرى الفقهاء للدفاع عن مبادىء الاسلام سواء في مجالسهم او في ما الفوه من الكتب فقد وضع الامام ابو حنيفه النعمان بن ثابت كتاب (الفقه الاكبر) رد فيه على الدهرية والجهمية ، كما الف الامام ابو عبد الله جعفر بن محمد الصادق كتابه (توحيد المفضل) رد فيه على المانوية .

وبرز الى ساحة المجابهه بن حيان التوحيدي (سنة ١٦١هـ) في كتابه (الخواص الكبير) رد فيه على المانوية وفند اقوالها في الكون ، وكذلك فعل النوبختي (ت ٢٠٢) ، والقاسم بن ابراهيم الذي تصدى للزنادقة ، وابن المقفع وكان ابرز الادوار اطلاقا دور الجاحظ (سنة ٢٥٥هـ) الكاتب القومي الرائع الذي انبرى للشعوبية بانتاجه الغزير يرد على كل قول تقوّله ويفند مواقفها سواء في كتبه الكبيرة . مثل الحيوان والبيان والتبيين او في رسائله ومجادلاته . ثم انبرى المعتزله في الجانب الفلسفي يدافعون عن المبادىء الاساسية في الاسلام (التوحيد والعدل والامر بالمعروف) وهكذا نجح الفكر العربي ليس في الصمود فحسب بل في المجابهة واحتواء الخصم والقضاء عليه وتحصين الجماهير ضد بدعه واقواله .

لقد حافظ العرب في صراعهم مع الشعوبية على مبادئهم التي كونها الاسلام ولم تنجح قوة الهجمة الشعوبية في جرهم الى منزلق يرجعهم الى القديم ، فلم يستخدموا اي سلاح مستخلص من القديم ، وفي هذا الصراع بينهم وبين الشعوبية برزت مبادؤهم بشكل واضح على النحو التالي :

أولا ـ ان الامة كيان قومي عقائدي واعداؤها هم الشعوبيون والعصبية القبلية والجاهلية فالمجابهة مع الخطر الجديد هي مجابهة تستوعب مفهوم الامة العقائدية وتنطلق منه (١) .

ثانيا ـ ان اصالة وعظمة الامة العربية تتمثل في انسانيتها وقيمها الكونيـــة الشاملة الخالدة وان موقفها من الفرس جزء من انسانيتها وليس فيه افضلية أو استعلاء (٢) .

ثالثا ـ ان العرب والفرس جزء من كيان بشرى واسع يعيش على الارض ويتأثر بعواملها الحاكمة من طبيعية واقتصادية (٣) .

رابعا ـ ان التاريخ مسيرة لهذه الامم ، غير ان قدرات الامم في انجاز مهامهـــا التاريخية تتباين ، وان العرب يتفوقون على الفرس في دورهم الحضاري فالفرس في التاريخ قوم استلابيون ومتغلبون ، بينما دور العرب في التاريخ يرتكز الى رسالة تؤمن بالعدل والمساواة والحرية (٤) .

ورغم هذا الجهد في المقاومة فان الامة لم تتخلص من التحديات الاجنبية ، انما استمر بناؤها السياسي يضعف ، وساهمت طبيعة تشكيل الجيش العباسي من قوى متنوعة عنصريا وثقافيا على تجهيز المجتمع بجماعات كبيرة من الاقوام الاجنبية غير المتحضرة ، واذا كان الخلفاء شعورا بخطر الاستعانة بالفرس لتحفزهم العدائي وما يمكن ان يشكلوه من خطر ، فانهم اتجهوا بالمقابل الى الاستعانة بالترك ، وهم قبائل بدوية تجيد ركوب الخيل وقوة التحمل، غير انها لا تجيد التعامل مع المؤسسات الحضارية التي أوجدها التطور الحضاري وخاصة الخلافة وتقاليدها ونظمها ، ومع تزايد استخدامهم في الجيش أصبحوا موقع قوة

---

(١) ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم : كتاب العرب أو الرد على الشعوبية ، منشور في رسائل البلغاء : محمد كرد علي ط ٣ لسنة ١٩٤٦ ، القاهرة ، ص ٣٤٤

(٢) ن٠م : ٣٥٣ .

(٣) ن٠م : ٣٥٦ .

(٤) ن٠م : ٣٥٣ .

جديد ، فازداد تدخلهم في شؤون الخلافه ، وظهر تناقضهم الاجتماعي والعسكري مع الدولة فلما نجحوا في الاستحواذ على مراكز القوة واضعاف نفوذ الخليفة كان طبيعيا ان يحجموا الدولة ويكيفوها تبعا لتقاليدهم ، لقد ظهر التناقض حادا وعنيفا مع البناء الاقتصادي فهذه القوة الطارئة بعد ان انهت دور الخليفة وارهبت المجتمع لم تستطع أن تفهم معنى الاقتصاد متعدد المصادر متنوع الانتاج ولم تفهم العلاقات الانتاجية القائمة على العمل والاجور والملكية الخاصة لذلك اتجهت ممارسات المتغلبين صوب البناء الاقتصادي فكرا ومؤسسات، وكان هدفها العودة بالاقتصاد العربي من اقتصاد انتاجي متنوع الموارد متعدد العلميات الى اقتصاد اقطاعي ، يلغي فيه العمل العام لينسجم مع الطبيعة القبلية لتلك القوى وتقاليدها غير انه بالمقابل اوقف التقدم الاجتماعي العربي . بل الغاه وعاد به الى الوراء . يقول المقريزي : « كانت عادة خلفاء الاسلام من بني امية وبني العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضه ان تجبي أموال الخراج ثم تفرق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء، وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هذا الرسم وفرقت الاراضي على الجند » (١) وعند المقريزي يبدأ انقراض الدولة العربية منذ عهد المعتصم عندما صار جنده من العجم والموالي (٢) ومنذ ذلك الوقت أصبح نظام الاقطاع في العراق والشام ومصر بديلا للاقتصاد المتكامل (٣) . فارتبك النظام الاداري وشهدت الدولة العربية معارضة واسعة كان لها دور كبير في اضعاف الدولة وجعلها في متناول القوى الطامعة . وفي القرن الرابع الهجري شعر العرب بالخطر الجديد سواء كان مصدره الغزو الاجنبي أو الحركات السياسية الداخلية ، الذي يهدد الامة العربية ، لذلك لجأ المثقفون الى توثيق صلاتهم بالصحراء ، وظهرت حركة نشطة

---

(١) المواعظ والاعتبار : ٤٨/٣ ، ٥٤ .

(٢) ن٠م : ٤٧/٣ ، ٤٨ .

(٣) ن٠م : ٤٣/٣ .

للهجرة من الصحراء الى المدن في الاطراف ، في محاولة لايقاف حالة التداعي ، ونجحت بعض القوى الصحراوية الجديدة ان تقيم لها أمارات سياسية ، غير ان القرن الرابع الهجري شهد اضافة الى الحركات السياسية الداخلية كالقرامطة والزنج ، شهد ايضا غزوا أجنبيا قام به البويهيون الذين استغلوا مشاكل الخلافة وضعفها ونجحوا في احتلال بغداد ومارسوا عملية استنزاف اقتصادي وارهاق العامة بالضرائب واهمال شؤونها . ثم أعقب البويهيين السلاجقه ، وهم قوم اتراك من أواسط آسيا ازاحوا البويهيين وحلوا محلهم . دون أن يختلفوا عنهم لا في تعاملهم مع السكان ولا في موقفهم من الخلافة ، فاستمرت حالة الاستنزاف الاقتصادي واضطرب الامن وعمت الفوضى وتقلصت حلقات العلم ومجالسه ، غير ان روح المقاومة لم تنته ونشطت عملية تسجيل التراث ازاء سيطرة القوى غير المتحضرة ، وحاولت الخلافة الافادة من روح التذمر بين اوساط العامة ، وقد افلحت فعلا ، وشهد القرن السادس الهجري يقظة الخلافة عندما خرج الخليفة المسترشد بالله في أروع عملية استشهاد في التاريخ لتحرير الامة من السيطرة السلجوقية ثم تخلصها من السيطرة الاجنبية فيما بعد ، وقد توجه أبرز خلفاء هذه الفترة الناصر لدين الله الى تجديد شباب الامة بالاعتماد على الشباب ، وتشكيل التنظيمات الشبابية وخاصة حركات الفتوة ثم قاد الامة في عملية تجاوز للمذهبية والطائفية عندما اعلن نفسه ملكا وليس خليفة ، واعتبر الوظائف وتوليها مسألة سياسية تتعلق بدور الفرد في خدمة الدولة ولا تمس فهمه المذهبي للدين . وكان واضحا أن الامة تعيش يقظة قومية فهذا الناصر لدين الله وقد رأى كتابه سلجوقية في الواح معلقة على بعض جدران بغداد يقول « اقلعوها لا حاجة لنا باثار الا عاجم » . ونظمت الحركة العلمية وبدات عملية تعميم التعليم بعد عملية التضييق التي مر بها ، وانشئت الجامعة المستنصرية في بغداد ، واستقدم لها المدرسون وقصدها الطلبة الا ان عملية التخلف كانت اسرع ، فقد حدثت هذه الامور في وقت واحد مع ظهور قوة بربريه هي المغول وتقدمها السريع غربا واجتياحها العالم المتمدن واستيلاءها على بغداد مركز الحضارة وبالتالي تعرض الانتاج الحضاري للامة الى الاتلاف ، لتمر الامة في ثاني اطول مرجلة احتلال في تاريخها الطويل .

المحتويات


طبع بمطابع
مديرية دار الكتب للطباعة والنشر
جامعة الموصل
مكتبة الرشد
ت ٤٥٨٣٧١٢
طريق الحجاز - مقابل بنك الاهلي
٨
ريال